الاسلام والنصرانية

مع

العلم والمدنية

بقلم حكيم الاسلام ، الاستاذ الامام

الشيخ محمد عبده

قدس الله روحه

وهي مقالات نشرت في مجلة المنار الاسلامي

لصاحبها

السيد محمد رشيد رضا

الطبعة الرابعة بمطبعة المنار بمصر

سنة ١٣٤٩

فهرس كتاب

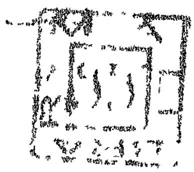
الإسلام والنصرانية
مع
العلم والمدنية

تأليف

الأستاذ الإمام

الشيخ محمد عبده

قدس الله روحه



صفحة

(فهرس كتاب الاسلام والنصرانية)

صفحة

صفحة

القسم الثالث في الاسلام

﴿ القسم الرابع ﴾

في العلم والدين ومستقبل الاسلام والمسلمين

صفحة

القسم الثاني

صفحة

صفحة

الاسلام والنصرانية

مع

العلم والمدنية

بقلم حكيم الاسلام . الاستاذ الامام

الشيخ محمد عبده

قدس الله روحه

وهي مقالات نشرت في مجلة « المنار » الاسلامي

لصاحبها

السيد محمد رشيد رضا

الطبعة الرابعة

مطبعة المنار بمصر

سنة ١٣٥٠

أعطاه من جراثيم الحياة ما لايقبل الفناء، مادامت الارض والسماء[(١)]

ينبوع تفجر في أرض وفاض ماؤه على غيرها، فأحيا الارض بعد موتها، ولكن القائمين على حراسته وتعاهده وضعوا فوقه أنقاضا من خرائب جيرانهم، فغيض الماء، وما بقي منه صار مستنقعات تجتوى، ولم يلبث بعد ماغاض أن فاض منه شيء في مواضع أخرى، فانتفع أهلها به وحافظوا عليه، ولكن الاكثرين منهم لايعرفون من أين جاءهم، كما ان أكثر أهل الينبوع المنتسبين اليه بالاسم لايعرفون أن ذلك الماء الذي تفجر في تلك المواضع. فأنشأ أهلها به حدائق ذات بهجة هو من ماء ينبوعهم، وانهم لو ازالوا عنه تلك الانقاض لفاض ورجع اليهم به خصبهم ونماؤهم كأحسن ما كان، إذاهم تعلموا من غيرهم كيف يستخدم الماء للاحياء

ذلك مثل المسلمين اليوم مع الامم الغربية الحية الراقية: أخذ

(١) بينا ان أركان الاصلاح الاسلامي غير قابلة للهدم في مقالات متعددة نشرناها في مجلدات المنار. كمقالات «الاصلاح الديني» والمقالة التي فاتحتها (وما كان ربك ليهلك القرى بظلم واهلها مصلحون) ومقالات «سلطة مشيخة الطريق الروحية» وفيها الكلام على تقييد الاسلام السلطتين، السياسية والدينية، وجعل الناس سواء، وكل هذا في المجلد الاول، وكمقالة «الجنسية والديانة الاسلامية» في المجلد الثاني ومقالة «اعادة مجد الاسلام» ومقالات «مدنية العرب» في المجلد ٣ الخ وكمقالات «الحكومة الاسلامية والقضاء في الاسلام» في المجلد الرابع

مقدمة ناشر الكتاب

بسم الله الرحمن الرحيم

«أُدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ . إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ١٢٥:١٦»

ظهرت في العالم مدنيات ثم خفيت ، ودُرست فيها العلوم والفنون ثم دَرست ، وصلحت أحوال الاناسي ثم فسدت ، وطلعت فيهم أقمار الهداية الدينية ثم خسفت ، ولم يزل الناس في قيام وقعود ، وهبوط وصعود ، والامم في تلاش وفناء ، ونشوء وارتقاء ، حتى استعد المجموع في جملته للرقيّ العام ، فمنحه الله تعالى دين الاسلام ،

جاء الاسلام والعالم كله في تأخر من جميع الوجوه أو الجهات - من جهة الدين ، من جهة العلم ، من جهة المدنية ، من جهة السياسة ، فلم يمر قرن واحد حتى جدد للعالم كله دينا قيما ، وعلما محكما ، ومدنية سعيدة ، وسياسة رشيدة ، ونشر ذلك كله في مشارق الارض ومغاربها بقوة الحق ، وسرعة البرق ، فتغير به وجه الارض ، ونفخ في الانسان روحا جديداً

المسيحية كانت أكثر تسامحا مع العلم من الاسلام ، وان الاسلام أكثر اضطهادا للعلم والفلسفة من النصرانية. وبين في آخر كتبه حال المسلمين السوءى وعدم موافقتها لما تقتضيه طبيعة دينهم، فبرأ الاسلام وسلفه من الملام، ولكنه لم يبريء المسلمين المتأخرين، بل دلهم على حقيقة دائهم، وهداهم إلى طريقة معالجته والخروج منه باذن الله تعالى . ولعمري انه انذر فأعذر ، وبرأ من وعيد الكتمان (فمن اهتدى فانما يهتدي لنفسه ومن ضل فانما يضل عليها)

الكاتب المسيحي هو رصيفنا الفاضل صاحب مجلة الجامعة، وقد تكلم في المقابلة بين الدينين المسيحي والاسلامي بالنسبة إلى العلم والفلسفة في ترجمة ابن رشد . فساءت تلك الترجمة من قرأها من المسلمين لهذه المقابلة ، ولمسئلتين أخريين ، أهمها عزو إنكار الاسباب إلى علماء الكلام، والثانية ما تضمنته الترجمة من الحكم بكفر ابن رشد فيلسوف المسلمين الاكبر في الاندلس . وقد رد حكيمنا على الجامعة في كل ما أخطأت به من الكلام في فلسفة ابن رشد والمتكلمين ، ومن المقابلة بين الديانتين، ونشرنا ذلك كله في المنار

فأما الكلام في فلسفة ابن رشد ومذهب المتكلمين فهو لا يكاد يفيد إلا الخواص من العلماء والمتكلمين . وأما الكلام في المقابلة بين الدينين من حيث أثرهما في العلم والمدنية فهو يفيد العوام والخواص، بل هو الشفاء لما في صدور الناس ، والضياء للباحثين في حنادس الحيرة والوسواس ، لهذا رأيت أن أجمعه في كتاب

الغربيون من الاسلام كل أصول الاصلاح الذي هم فيه، وهم يقولون أن الاسلام عقبة في طريق كل اصلاح ، ويقولون للمسلمين: ان ماءنا صاف نقي يحيي البلاد والعباد ،وماءكم آسن أجاج أحدث مستنقعات أهلكت الحرث والنسل . فكيف يستوي الماءان ،وقد اختلف الأثران ؟ منهم من يقول هذا معتقداً، ومنهم من يقول منتقداً، ونحن ساكتون عنهم ، لاننا جاهلون بأنفسنا وبهم

(ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب) ويظهر الحق من الباطل ، فتقوم الحجة على الجاهل بدينه ونفسه ، والمكابر لوجدانه وحسه (لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرى) فيرجعوا الى أصول دينهم ، وهو الاولى بهم والاحرى ، فقد أعدهم بنوائب الزمان ، وصروف الحدثان ، لان يعترفوا بذنبهم ، وينيبوا بالتدريج إلى ربهم ، اذ ظهر فيهم علماء ربانيون، وأطباء روحانيون، يعرفونهم حقيقة الداء ، ويصفون لهم نقي الدواء ، وما طلب الانسان بلسان استعداده شيئا من مولاه ، الا تفضل عليه به وأعطاه إياه (١)

لهذا سخر الله للمسلمين حكيما من الاعلام ، وإماما من ائمة الاسلام ، يطب لدائهم ، ويجمع ما تفرق من آرائهم ،وقد كتب في هذه الايام كتابة جليلة في العلم والمدنية ، بالنسبة إلى الديانتين النصرانية والاسلامية، رد فيها على أحد كتاب المسيحيين قوله : ان

(١) راجع مقالة (الاصلاح والاسعاد ، على قدر الاستعداد) في المجلد الرابع من المنار

بسم الله الرحمن الرحيم

القسم الاول من الكتاب في النصرانية

اضطهاد العلم والمدنية في النصرانية

﴿ قال الاستاذ الامام الحكيم رحمه الله وأثابه ﴾

ذكرت الجامعة ـ في الجزء الثامن من السنة الثالثة في سياق الكلام على ما جرى لابن رشد ـ أن للناس آراء في : هل الدين المسيحي أوسع صدراً في احتماله مجاورة العلم والفلسفة ، أو أن الدين الاسلامي هو الارحب خلقاً ، والاوسع حلماً من الدين المسيحي في قبول أهل النظر في الكون اذا نزلوا بداره ، ولاذوا بجواره ؟ وذكرت أن للقائلين بتسامح الدين المسيحي مع العلم وأهله دون الدين الاسلامي : أن فولتير وديدرو وروسو ورنان قالوا فيما يضاد الدين ما قالوا ولم يصابوا بضرر ، وابن رشد لم يقل شيئا سوى أنه قرر ماقال أرسطو وأوضحه مع تصريحه بسلامة اعتقاده ، ومع ذلك أهين وبصق على وجهه. وللقائلين بسعة حلم الاسلام: أن الاسلام لم يحكم باحراق أحد لمجرد الزيغ في عقيدته ، وكم حكمت المسيحية بذلك ثم جعلت أهل الرأي الاول آخر من يتكلم وقالت « فيرد

مستقل وأطبعه ليعم نفعه(١) واستأذنت الكاتب في ذلك فأذن فأنفذت، وعلى الله توكلت

وأحب أن يكون حظ كل مسلم من هذا الكتاب أن يجتهد في الاخذ بأصول دينه المشروحة فيه، وأن يقتدي بكرام سلفه في جدهم واجتهادهم وسيرتهم مع المخالفين لهم في الاعتقاد، ولا يكون حظهم الافتخار بأن ديننا جامع لخيري الدنيا والآخرة، وان سلفنا كانوا خير أمة أخرجت للناس، وان غيرنا ليس كذلك، لان كل هذا حجة علينا لا لنا، وهو لا يغني عنا شيئا في دنيانا ولا في آخرتنا (١٩ : ١٧ فبشر عبادي الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الالباب)

محمد رشيد رضا

منشئ مجلة المنار

﴿ تنبيه ﴾ كتبنا هذه المقدمة للطبعة الاولى التي طبعت في عهد الاستاذ الامام ثم صرنا نعيدها في كل طبعة، وقد اعتدى بعض الكتبية بعد وفاته علينا فطبع الكتاب، فرفعنا عليه قضية كان وكيلنا فيها حموده بك عبده أخو الاستاذ رحمهما الله تعالى فحكمت المحكمة بأن حق الطبع لنا وحكمت لنا على الطابع المعتدي بالتعويض المالي

(١) قد بدا لنا ان نضيف إلى هذه الطبعة ما رد به الاستاذ رحمه الله تعالى على مجلة الجامعة في فلسفة ابن رشد أيضا لما بيناه في مقدمتها

والفصل الثاني في قولها «إن العلم والفلسفة قد تمكنا الى الآن من التغلب على الاضطهاد المسيحي. ولذلك نما غرسهما في تربة أوربا وأينع وأثمر التمدن الحديث، ولكنهما لم يتمكنا من التغلب على الاضطهاد الاسلامي وفي ذلك دليل واقعي على أن النصرانية كانت أكثر تسامحا» اهـ

﴿ الجواب الاجمالي ﴾

واني أعجل في الجواب بما يلاقي هذين الحكمين إجمالا: أما الاول فان كان الانجيل فصل بين السلطتين بكلمة واحدة فالقرآن قد أطلق القيد من كل رأي بكلمتين كبيرتين لا كلمة واحدة. قال في سورة البقرة (لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم) وقال في سورة الكهف (وقل الحق من ربكم فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر)

وأما الثاني فأسأل الجامعة في جوابه: أين الاضطهاد الواقع على العلماء اليوم عند المسلمين؟ وأين أولئك العلماء المضطهدون؟ وأريد بالعلماء أولئك الذين يساوون من ذكرتهم من فولتير وديدرو وروسو وامثالهم. وكيف ساغ لها أن تقول ماتقول وهي في ارض مصر ومصر بلاد اسلامية وحالها كما ترى؟ فاذا أردت شاهدا على حال المسيحية والعلم فلتمر بنظرها اليوم على أسبانيا ولتقف برهة من الزمان ثم لتحكم. يمكنها أن تعد من طلبة العلوم المسلمين مئين،

عليهم الاولون بقولهم : هل يجب أن يكون التسامح مع القريب فقط ام مع القريب والغريب معاً ؟ ثم ألا تذكرون الحروب والفتن التي قامت بين شعوب المسلمين وحكامهم بسبب الاعتقادات الدينية فأضعفت أممهم ، وفرقت كلمتهم ؟ فهل يجوز أن تسموا محاربة شخص واحد وإعدامه (محاربة للانسانية) ولا تسموا كذلك محاربة شعب لشعب وأمة لامة » اه

ثم قالت الجامعة: انها لا تفصل بين القولين ، ولكنها فصلت فيهما فصلين (الاول) في قولها « إنا نرى أن السلطة المدنية في الاسلام مقرونة بالسلطة الدينية بحكم الشرع ، لان الحاكم العام هو حاكم وخليفة معاً ، وبناء على ذلك فان التسامح يكون في هذه الطريقة أصعب منه في الطريقة المسيحية فان الديانة المسيحية قد فصلت بين السلطتين فصلا بديعا مهد للعالم سبيل الحضارة الحقيقية والتمدن الحقيقي ، وذلك بكلمة واحدة « أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » وبناء على ذلك فان السلطة المدنية في هذه الطريقة إذا تركت للسلطة الدينية مجالا للضغط على حرية الافراد من أجل اعتقاداتهم الخصوصية فضلا عن قتلهم ، وسقي الارض بدمائهم البريئة ، فانها تجني جناية هائلة على الانسانية ، وعلى ذلك لا يكون في هذه الطريقة من التسامح أكثر مما في تلك ، إذا بدا منها نقص ، ولو كان هذا النقص أخذ من نقص شقيقتها لانه لا نقص أعظم من نقص القادر على التمام »

والاسلام في أوج القوة . ودخلوا في حكم الاتراك وهم هم أيام كان ملك فرنسا يستنجد بملكهم وكانت عساكرهم على أسوار فينا . كان أولئك الذين يراهم المسلمون قد خرجوا من دينهم ، وأسروا عقيدة تناقض عقيدتهم، قد ظهروا باعمال تضاد أعمالهم، وهم جيرانهم وتحت أيديهم وفي مكنتهم محوهم ، ومع ذلك عاشوا إلى اليوم ولهم أحبة وأصدقاء بين المسلمين . وللمسلمين بينهم مصافون وأوداء ، فهل عهد مثل ذلك عند المسيحيين ؟

غير أن موضوع قولي محدود كما قلت فلا أخرج عنه، وأراني نطقت فيه بكلمتي المجملة . ولكن لا يكفي لبيان ما عرضت به الجامعة في قولها « هل يجب أن يكون التسامح مع القريب فقط أو مع القريب والغريب الخ » ولا لتحقيق الحق فيما حكمت به في حكميها إلا تفصيل تعرض فيه حالة الدينين من العلم تحت نظر القاريء على وجه يمكن معه الحكم عن فهم ، ولا تلتبس فيه الحقيقة بالوهم .

الجواب التفصيلي

أرى الجامعة جاءت في كلامها بأربعة أمور، آتي بها على حسب ترتيب النسق في تعبيرها (الاول) ان المسلمين قد تسامحوا لاهل النظر منهم ولم يتسامحوا لمثلهم من أرباب الاديان الأخرى (الثاني) إن من الطوائف الاسلامية طوائف قد اقتتلت بسبب الاعتقادات

في مدارس المسيحين من جزويت وفرير وأميركان وهي مدارس دينية خصوصا مدارس الجزويت . فهل يمكنني أن أجد طالبا واحدا مسيحيا في مدرسة دينية اسلامية يباح الدخول فيها لكل طالب علم من أي ملة؟ لانجد الا قليلا منهم في مدارس الحكومة لعلمهم أنها مدارس رسمية لم يقم بناء تعليمها على الدين . فهل سمع أن والدا اضطهد لانه بعث بولده الى مدرسة مسيحية يديرها قسوس مسيحيون ؟ ألا يعد هذا من تسامح الاسلام مع العلم اليوم ؟ (١)

لولا أن موضوع كلامي محدود باعتبار التسامح بالنسبة الى العلم والفلسفة وحدهما لذكرت لصاحب الجامعة انه يوجد في بلاده طائفتان تعد آحادهما بالالوف وتزعم كل منهما أن لها نسبة الى الاسلام ، وهي تعتقد بما لا ينطبق على أصل من أصوله حتى أصل التوحيد والتنزيه عن الحلول ، ولا تقول بفرض من فروضه المعلومة منه بالضرورة . وأجمع فقهاء الامة على أنهما من قبيل المرتدين والزنادقة ، لاتؤكل ذبائح أفرادهما ولا يباح لهم أن يتزوجوا من المسلمات ، وإنما اختلفوا في قبول توبة من تاب منهم، ومن العلماء من قال لا تقبل توبته . وهم مع ذلك عائشون بجوار المسلمين ، ومضى عليهم مايزيد على تسعمائة سنة ، وقد كانوا تحت سلطان المسلمين

(١) مثله اشتراك المسلمين في الجرائد المسيحية وعدم اشتراك النصارى في الجرائد الاسلامية الا نادرا

العقيدة وهي ما وقع بين دولة ايران والحكومة العثمانية وبين الحكومة العثمانية والوهابيين، ولكن يتسنى لباحث بأدنى نظر أن يعرف أنها كانت حروبا سياسية، ويبرهن على ذلك بالولاء المتمكن بين الحكومتين اليوم مع بقاء الاختلاف في العقيدة بين الحكومة العثمانية وابن الرشيد أمير الوهابيين (١)

وأما الحروب الداخلية التي حدثت بعد استقرار الخلافة في بني العباس وأضعفت الامة وفرقت الكلمة فهي حروب منشؤها طمع الحكام وفساد أهوائهم، وحبهم الاستئثار بالسلطان دون سواهم. ومصدر ذلك كله جهلهم بدينهم، وارتخاء حبل التمسك به في أيديهم. وأكبر داء دخل على المسلمين في همهم وعقولهم انما دخل عليهم بسبب استيلاء الجهلة على حكومتهم . اقول « الجهلة » وأريد أهل الخشونة والغطرسة الذين لم يهذبهم الاسلام ولم يكن لعقائده تمكن من قلوبهم . ولو رزق الله المسلمين حاكما يعرف دينه ويأخذهم باحكامه لرأيتهم قد نهضوا والقرآن الكريم في إحدى اليدين وما قرر الاولون وما اكتشف الآخرون في اليد الاخرى، ذلك لآخرتهم، وهذا لدنياهم، وساروا يزاحمون الاوربيين فيزحمونهم

مالنا وللحكام نعرض لهم ؟ الذي عليّ أن أقول ولا أخشى منازعا: انه لم تقع حرب معروفة بين المسلمين للحمل على عقيدة من العقائد

(١) لعل الاولى ان يقال: من امراء الوهابيين، وقد وقع بعد وفاة الاستاذ بسنين بين ابن السعود أمير الوهابيين العام وبين الدولة صلح اعترفت له الدولة فيه بالاستقلال التام مع نوع من الارتباط بها

الدينية (الثالث) ان طبيعة الدين الاسلامي تأبى التسامح مع العلم وطبيعة الدين المسيحي تيسر لأهله التسامح مع العلم (الرابع) ان ايناع ثمر المدنية الحديثة انما تمتع به الاروبيون ببركة التسامح الديني المسيحي . فلا بد لي من الكلام على كل واحد من هذه الامور الاربعة وابتديء منها بالثاني لقلة الكلام عليه

نفي القتال بين المسلمين لاجل الاعتقاد

لم يسمع في تاريخ المسلمين بقتال وقع بين السلفيين (الآخذين بعقيدة السلف) والاشاعرة مع الاختلاف العظيم بينهما ، ولا بين هذين الفريقين من أهل السنة والمعتزلة مع شدة التباين بين عقائد أهل الاعتزال وعقائد أهل السنة سلفيين وأشاعرة — كما لم يسمع بان الفلاسفة الاسلاميين تألفت لهم طائفة وقع الحرب بينها وبين غيرها . نعم سمع بحروب تعرف بحروب الخوارج كما وقع من القرامطة ، وغيرهم وهذه الحروب لم يكن مثيرها الخلاف في العقائد وانما أشعلتها الآراء السياسية في طريقة حكم الامة ، ولم يقتتل هؤلاء مع الخلفاء لاجل أن ينصروا عقيدة ، ولكن لأجل أن يغيروا شكل حكومة . وما كان من حرب بين الامويين والهاشميين فهو حرب على الخلافة وهي بالسياسة أشبه ، بل هي أصل السياسة

نعم وقعت حروب في الازمنة الاخيرة تشبه أن تكون لاجل

المسلمين وخاصتهم مالم يبلغه غيرهم

قال المستر درابر أحد المؤرخين وكبار الفلاسفة من الامير كان. «ان المسلمين الاولين في زمن الخلفاء لم يقتصروا في معاملة أهل العلم من النصارى النسطوريين ومن اليهود على مجرد الاحترام، بل فوضوا اليهم كثيراً من الاعمال الجسام، ورقوهم الى المناصب في الدولة. حتى إن هارون الرشيد وضع جميع المدارس تحت مراقبة حنا مسنيه» (هو يوحنا ابن ماسويه الشهير) وقال في موضع آخر: «كانت ادارة المدارس مفوضة مع نبل الرأي وسعة الفكر من الخلفاء الى النسطوريين تارة والى اليهود تارة أخرى. لم يكن ينظر الى البلد الذي عاش فيه العالم ولا الى الدين الذي ولد فيه، بل لم يكن ينظر الا الى مكانته من العلم والمعرفة. قال الخليفة العباسي الاكبر المأمون: « الحكماء هم صفوة الله من خلقه، ونخبته من عباده، لانهم صرفوا عنايتهم الى نيل فضائل النفس الناطقة، وارتفعوا بقواهم عن دنس الطبيعة، هم ضياء العالم، وهم واضعو قوانينه، ولولاهم لسقط العالم في الجهل والبربرية».

وقال في موضع آخر «ان العرب قد زحفوا بجيش من اطبائهم اليهود ومؤدبي أولادهم من النسطوريين ففتحوا من مملكة العلم والفلسفة ما أتوا على حدوده بأسرع مما أتوا على حدود مملكة الرومانيين »

ولست في حاجة الى ذكر ما أسس الخلفاء والملوك من المدارس، وأقاموا من المراصد، وما حشدوا من الكتب الى المكاتب، لان هذه

أو على تركها ، على ان هذا الامر الذي جاءت به الجامعة وألجأتنا إلى الكلام فيه خارج عن الموضوع بالمرة، لان الكلام في التسامح الديني مع العلم لا في تسامح عقيدة مع عقيدة أو دين مع دين، وإلا لأوردنا لها من حروب الطوائف المسيحية بعضها مع بعض وحروبها مع غيرها مايستغرق أجزاء الجامعة بقية هذه السنة اذا أوجزنا مااستطعنا .

هل أذكرها بما كان يقع في القسطنطينية من سفك الدماء بين الارثوذكس والكاثوليك على عهد القياصرة الرومانيين؟ هل اذكرها بحادثة برتلمي سنتهلير التي سفك فيها الكاثوليك دماء اخوانهم البروتستانت وأخذوهم في بيوتهم على غرة وقتلوهم نساء ورجالا وأطفالا؟ بماذا اذكر الجامعة من أمثال هذه الوقائع التي اسودلها لباس الانسانية ، وتسلبت لحدوثها البشرية ؟ هل يمكن لأحد أن يروي حادثة مثلها وقعت بين شعوب المسلمين بعضهم مع بعض لخلاف في العقيدة مهما عظم الاختلاف

تساهل المسلمين مع أهل العلم والنظر من كل ملة

ثم أرجع إلى الامر الاول من الامور الاربعة لان الكلام عليه أقل منه على الامر الثالث . واني لأستدل على رعاية الاسلام على الحكماء من الملل غير المسلمة بقول كاتب مسلم وانما ارجع في جميع ماأذكر إلى كتب المؤرخين والفلاسفة من المسيحيين واذكر أسماء جماعة من المسيحيين وغيرهم بلغوا من الحظوة عند الخلفاء وعامة

وممن حظي بالمكانة العليا عند الخليفة المهدي تيوفيل بن توما النصراني المنجم وكان على مذهب الموارنة من سكان لبنان . وله كتب في التاريخ جليلة، ونقل كتاب أميروس إلى السريانية بأفصح عبارة

وممن ارتفع شأنه عند الرشيد من الفلاسفة بختيشوع الطبيب وجبريل ولده ويوحنا بن ماسويه النصراني السرياني . ولاّه الرشيد ترجمة الكتب القديمة ، طبية وغيرها، وخدم الرشيد ومن بعده إلى المتوكل . وكان يعقد في داره مجلسا للدرس والمناظرة ولم يكن يجتمع في بيت للمذاكرة في العلوم من كل نوع والآداب من كل فن مثل ما يجتمع في بيت يوحنا بن ماسويه

وممن علا قدره في زمن المأمون يوحنا البطريق مولى المأمون أقامه كذلك أمينا على ترجمة الكتب من كل علم من علوم الطب والفلسفة . وكذلك ارتفع شأن سهل بن سابور وسابور ابنه وكانا نصرانيين . وولي سابور بن سهل بيمارستان جنديسابور

وكان سلمويه بن بنان النصراني طبيبا عند المعتصم ولما مات جزع عليه جزعا شديداً وأمر بأن يدفن بالبخور والشموع على طريقة النصارى

وكان بختيشوع بن جبريل عند المتوكل يوما فأجلسه بجانبه وكان عليه دراعة حرير رومية بها فتق فأخذ المتوكل يحادثه ويعبث بالفتق حتى وصل إلى النيفق (وهو مااتسع من الثوب) ودار

خارج عن بحثنا الآن وسيرد عليك شيء منه فيما بعد

طائفة من الحكماء والعلماء الذين حظوا عند الخلفاء

أذكر ممن اشتهر من الحكماء بالحظوة عند الخلفاء جيورجيس بن بختيشوع الجنديسابوري طبيب المنصور كان فيلسوفا كبيرا علت منزلته عند المنصور لانه كانت له زوجة عجوز لا تشتهى، فأشفق عليه المنصور وانفذ اليه بثلاث جوار حسان فردهن وقال: ان ديني لا يسمح لي بأن أتزوج غير زوجتي مادامت حية، فأعلى مكانته حتى على وزرائه، ولما مرض أمر المنصور بحمله الى دار العامة وخرج اليه ماشيا يسأل عن حاله، فاستأذنه الحكيم في رجوعه الى بلده ليدفن مع آبائه فعرض عليه الاسلام ليدخل الجنة فقال: رضيت ان اكون مع آبائي في جنة أو نار، فضحك المنصور وأمر بتجهيزه ووصله بعشرة آلاف دينار (وهو المنصور الدوانيقي المشهور بالامساك وكزازة اليد) وأوصى من معه بحمله اذا مات في الطريق الى مدافن آبائه كما طلب. ثم سأله عمن يخلفه عنده، فأشار الى عيسى بن شهلاثا أحد تلاميذه فأخذه المنصور مكان جيورجيس فطفق يؤذي القسوس والبطارقة ويهددهم بمكانه عند الخليفة لينال رغائبه فشعر الخليفة بذلك فطرده

وممن حظي عند المنصور نوبخت المنجم وولده ابو سهل وكانا فارسيين على مذهب الفرس ثم كانت ذرية مسلمة لابي سهل وكانوا جميعا منجمين لهم شهرة في علوم الكواكب فائقة

الاسلام وهو نصراني طلبه الخلفاء إلى بغداد لاجل الترجمة. ثم يحيى ابن عدي بن حميد بن زكريا المنطقي انتهت اليه الرئاسة ومعرفة العلوم الحكمية في وقته وقرأ على متى بن يونس وعلى أبي نصر الفارابي

ومنهم ابو الفرج ابن الطيب فيلسوف عالم . قالوا كان كاتب الجاثليق ومتميزاً في النصارى ببغداد، وكان يقريء صناعة الطب في البيمارستان العضدي، وكان معاصراً للشيخ الرئيس ابن سينا. والرئيس يمدح طبه ولا يحمد فلسفته وله كلام فيه

وممن كانت له المكانة الرفيعة عند الخلفاء والخاصة والعامة ثابت بن قُرة الحرَّاني الصابيء من طائفة الصابئين المعروفة. وتربى في بيت محمد بن موسى بن شاكر الفلكي المشهور ، وبلغ في علوم الفلسفة مبلغا لم يدانه فيه غيره. وله تآليف كثيرة في المنطق والطب والرياضيات . وبلغ عند المعتضد مقاما تقدم فيه عنده على وزرائه . وولد ثابت هذا سنة إحدى عشرة ومائتين بحران . ثم كان ابناه ابراهيم وسنان على قدم أبيهما . ومن حفدته ابو الحسن ثابت بن قرة . وكان ثابت وابراهيم وسنان صابئين ولهم من المنزلة ماعلمت ومدحهم كثير من شعراء المسلمين وهم صابئة

*
* *

ماذا أعد للجامعة من الفلاسفة والحكماء من الملل المختلفة الذين وسعهم صدر الاسلام ، ولم يضن عليهم بالرعاية والاحترام ؟ هل

الكلام بينهما حتى سأله المتوكل : بماذا تعلمون ان الموسوس (المصاب بخبل في عقله) يحتاج إلى الشد؟[١] فقال بختيشوع : اذا عبث بفتق دراعة طبيبه حتى بلغ النيفق شددناه . فضحك المتوكل حتى استلقى

وفي أيام المتوكل اشتهر حنين بن اسحاق النصراني العبادي وهو من أشهر المترجمين لكتب ارسطو وغيره ، وامتحن المتوكل صدقه ، فظهرت له عزيمة لا تفل فأقطعه اقطاعات واسعة. وكان قد عرف بفصاحة العبارة وحسن الترجمة في زمن المأمون وهو فتى فكلفه بترجمة الكتب وكان يعطيه وزن ما يترجم ذهبا . وكانت بينه وبين الطيفوري النصراني محاسدة أفضت إلى طلب الحكم على حنين في مجلس الاساقفة بالحرم من الكنيسة ، فمات غما لاضطهاد أهل طائفته له مع عزته وعلو قدره عند الخليفة . وهذا الطيفوري أيضاً كان من المقربين عند الخلفاء

وممن ارتفع شأنه عند الخلفاء والخاصة والعامة في زمنه أيام خلافة الراضي متى بن يونس المنطقي النصراني النسطوري كان متفننا في جميع العلوم العقلية، أخذ عنه ابو نصر الفارابي وانتهت اليه الرآسة في بغداد، وكان من أهل دير قنى ، ونشأ في مدرسة مار ماري، وقرأ على روفائيل وبنيامين الراهبين اليعقوبيين

ومن المقربين عند الخلفاء قسطا البعلبكي من فلاسفة دولة

---

(١) يعني بالشد هنا إيثاق المجنون بالحبل حتى لا يؤذي الناس.

وهو ميزان احترام العلماء للعلم. ويسهل عليّ أن التمس العذر للجامعة بانها عندما كتبت ما كتبت تمثلت لها بعض حوادث قيل انها حدثت للدين وما حدثت له . بل كان سبب حدوثها إما سياسة خرقاء ، أو جهالة عمياء ، أو تأريث بعض السفهاء ،

لا أطيل خوف الاملال وأنتقل الآن إلى الامر الثالث وهو المقابلة بين طبيعة الدينين وهو أهم مما سبق ومما سيلحق

طبيعة الدين المسيحي

﴿ تمهيد ﴾ ظنت الجامعة أن الدين المسيحي فصل بين السلطة الدينية والسلطة المدنية، ولذلك كان في طبيعته التسامح . أما الدين الاسلامي فمن أصوله ان السلطان ملك وخليفة ديني ، وذلك مما يصعب معه التسامح في رأيها

ليس هذا بكاف في بيان طبيعة كل من الدينين واستعدادهما للتسامح مع العلم او مع ايه عقيدة تخالفها، بل لابد من بيان اركان الدين ، وأهم أصوله التي ترجع اليها جميع الفروع ، وعنها تصدر الآثار الحقيقية

عند النظر في اي دين للحكم له او عليه في قضية من القضايا يجب أن يؤخذ ممحصا مما عرض عليه من بعض عادات اهله او محدثاتهم التي ربما تكون جاءتهم من دين آخر . فاذا اريد ان

تريد أن أتمم لها الكلام بذكر كثير من فلاسفة الاسلام المسلمين الذين نالوا أسمى الدرجات وأعلى المقامات عند الخلفاء والملوك ؟ هل أنا في حاجة إلى ذكر فيلسوف الاسلام أبي يوسف يعقوب الكندي — وهو بصري الاصل — ابن الامير إسحاق الذي كان أميراً للمهدي والرشيد على الكوفة ، وهو من ذرية الاشعث بن قيس أحد أصحاب رسول الله ﷺ ، وكان عالما بالطب والفلسفة والهيئة والحساب والموسيقى ، واشتغل بالترجمة كما اشتغل غيره بها فترجم كثيراً من كتب الفلسفة وأوضح الغامض منها ، وكانت له المكانة العليا عند المأمون والمعتصم وولده أحمد ؟ هل أنا في حاجة الى ذكر بني موسى ابن شاكر : محمد واحمد والحسن الذين اشتغلوا في مساحة الكرة الارضية ومعرفة محيطها وقطرها وما كان لهم من المنزلة عند الامراء والخلفاء؟ أأذكر ابن سينا ومنزلته في قومه ووصوله إلى مسند الوزارة عند شمس الدولة ؟ أم أذكر الفارابي وما كان له من المكانة عند سيف الدولة بن حمدان؟

لاريب أن أبا العلاء المعري يصلح أن يكون رجلا ممن تعنى الجامعة بنشر تراجمهم وقد قال مالم يقل بمثله فولتير وروسو وقد مات مع ذلك على فراشه وقبره اليوم مزار يرحل اليه في بلده

أظن أنه يسهل بعد سرد ماعددناه أن يعرف قراء الجامعة ان الاسلام كان يوسع صدره للغريب كما يوسعه للقريب بميزان واحد

زاد الانجيل على هذا أن الايمان ولو كان مثل حبة خردل كاف في خرق نواميس الكون ، كما قال في الاصحاح السابع عشر من متى ١٠ : « فالحق أقول لكم لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا إلى هناك فينتقل ولا يكون شيء غير ممكن لديكم » وفي الحادي عشر من مرقس ٢٣ «لاني الحق أقول لكم إن من قال لهذا الجبل انتقل وانطرح في البحر ولا يشك في قلبه بل يؤمن أن مايقوله يكون فهما قال يكون له ٢٤ لذلك أقول لكم كل ما تطلبونه حينما تصلون فآمنوا أن تنالوه فيكون لكم »

فكل بحث يؤدي إلى أن للكون شرائع ثابتة وان للعلل والشرائط أو الاسباب أو الموانع أحكاما في معلولاتها أو ماشرطت فيه او ماتسبب عنها او مااستحال وجوده لوجودها ، كان مضاداً لهذا الاصل في أي زمن . وقد كان كل علم من علوم الاكوان لابد فيه من هذا البحث ، فكل علم مضاد لهذا الاصل . ثم ان صاحب الاعتقاد بهذا الاصل لايحتاج إلى البحث في الاسباب والمسببات لان اعتقاده في الشيء أن يكون وارادته لان يكون كافيان في حصوله ، فهو في غنى عن العلم والعلم عدو لما يعتقد . فما أصعب احتماله إذا جاء يزاحمه في سلطانه .

يحتج بقول أو عمل لأتباع ذلك الدين في بيان بعض أصوله فليؤخذ في ذلك بقول أو عمل أقرب الناس إلى منشأ الدين ومن تلقوه على سذاجته التي ورد بها من صاحب الدين نفسه

وإنني أوجز القول في إيراد الاصول الاولى التي وردت في الاناجيل المعروفة الآن في أيدي المسيحيين ، وجاءت في كلام أئمتهم الاولين ، ثم إيراد ما جر اليه الاخذ بتلك الاصول بحكم طبيعة الدين

الاصل الاول للنصرانية: الخوارق

أول أصل قام عليه الدين المسيحي وأقوى عماد له هو خوارق العادات . تقرأ الاناجيل فلا تجد للمسيح عليه السلام دليلا على صدقه إلا ما كان يصنع من الخوارق وعددها في الاناجيل يطول شرحه . ثم انه جعل ذلك دليلا على صحة الدين لمن يأتي بعده ، فجعل لاصحابه ذلك كما تراه في الاصحاح العاشر من انجيل متى وغيره ، إذا تتبعت جميع ما قال الاولون من أهل هذا الدين تجد خوارق العادات من أظهر الآيات ، على صحة الاعتقادات ، ولا يخفى أن خارق العادة هو الامر الذي يصدر مخالفا لشرائع الكون ونواميسه ، فاذا ساغ أن يكون ذلك لكل من علا كعبه في الدين لم يبق عند صاحب الدين ناموس يعرف له حكم مخصوص

الصادرة بالانقطاع إلى الملكوت والهروب من عالم الملك صريحة في الاصحاح السادس والعاشر والتاسع عشر من انجيل متى . فما جاء في السادس : «لاتقدرون أن تخدموا الله والمال ٢٥ لذلك أقول لكم لاتهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون، ولالاجسادكم بما تلبسون ، أليست الحياة أفضل من الطعام، والجسد أفضل من اللباس؟ (الى أن قال) ٣٣ ولكن اطلبوا أولا ملكوت الله وبره وهذه تزاد لكم ٣٤ فلا تهتموا للغد لأن الغد يهتم بما لنفسه ، يكفي اليوم شره» وقال في التاسع عشر : ٢٣ «الحق أقول لكم إنه يعسر أن يدخل غني الى ملكوت السموات ٢٤ وأقول لكم أيضا ان مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من ان يدخل غني الى ملكوت الله» وفي العاشر : «٩ لاتقتنوا ذهبا ولافضة ولا نحاسا في مناطقكم ١٠ ولا مزودا للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا الخ»

وحث على الرهبانية وترك الزواج وفي ذلك قطع النسل البشري قال في (١٩: ١٠ من متى) «ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لاجل ملكوت السموات من استطاع أن يقبل فليقبل»

ثم ان ملكوت السموات قد نيط أمره بالايمان المجرد عن النظر في الاكوان، فماذا يكون حظ صاحب الاعتقاد بهذا الاصل من النظر في اي علم، والعلم لا دخل له في شؤون الآخرة، والدنيا قد حرمت عليه ؟ لاريب ان همه يكون في الصلاة وصرف القلب بكايته الى

الاصل الثاني للنصرانية سلطة الرؤساء

وبعد هذا الاصل أصل آخر وهو السلطة الدينية التي منحت للرؤساء على المرؤسين في عقائدهم، وما تكنه ضمائرهم. وقد أحكم هذه السلطة ما ورد في ١٦: ١٩ من انجيل متى: «أعطيك مفاتيح ملكوت السموات فكل ما تربطه على الارض يكون مربوطا في السموات وكل ماتحله على الأرض يكون محلولا في السموات» وفي ١٨: ١٨ منه «الحق أقول لكم كل ماتربطونه على الارض يكون مربوطا في السماء. وكل ماتحلونه على الارض يكون محلولا في السماء»

فاذا قال الرئيس الكهنوتي لشخص إنه ليس بمسيحي صار كذلك، وإذا قال إنه مسيحي فاز بها. فليس المعتقد حراً في اعتقاده. يتصرف في معارفه كما يرشده عقله، بل عينا قلبه مشدودتان بشفتي رئيسه. فاذا اهتزت نفسه إلى بحث أوقفها القابض على تلك السلطة. وهذا الاصل ان نازع فيه بعض النصارى اليوم فقد جرت عليه النصرانية خمسة عشر قرنا طوالا

الاصل الثالث للنصرانية ترك الدنيا

وبعد هذين الاصلين أصل ثالث وهو التجرد من الدنيا والانقطاع إلى الآخرة. تجد هذا الاصل في الاناجيل وفي أعمال الرسل وكلما قرأت في الكتب الاولى عثرت به. وتجد الاوامر

الاصل الخامس للنصرانية

ان الكتب المقدسة حاوية كل مايحتاج اليه البشر

في المعاش والمعاد

ثم ينضم الى الاصول الاربعة خامس وهو ان الكتب المعروفة بالعهد القديم والعهد الجديد تحتوي على كل مايحتاج البشر إلى علمه سواء كان متعلقا بالاعتقادات الدينية، والآداب النفسية، والاعمال البدنية، مما يؤدي إلى نيل السعادة في الملكوت الاعلى - أو كان من المعارف البشرية التي يتأتى للعقل الانساني أن يتمتع بها

قال تير تورليان [وهو أفضل من وصف الاعتقاد المسيحي في نهاية القرن الثالث قبل ان تعرض عليه البدع الكثيرة] : «ان عقائد المسيحية أسست على الكتب السماوية، ودليل صحة هذه الكتب قدمها وكونها اقدم من كتاب اميروس، وأقدم من اقدم أثر معروف عند الرومانيين، وأقدم من تأسيس الحكومة الرومانية نفسها، والزمن ناصر الحقيقة، ثم تحقق النبوات التي وردت فيها» ثم قال: «ان اساس كل علم (عندهم) هو الكتاب المقدس وتقاليد الكنيسة، وان الله لم يقصر تعليمنا بالوحي على الهداية إلى الدين فقط بل علمنا بالوحي كل ما اراد ان نعلمه من الكون، فالكتاب المقدس يحتوي من العرفان على المقدار الذي قدر للبشر أن ينالوه» فجميع ماجاء في الكتب السماوية من وصف

العبادة دون سواها وليس الفكر في الخليقة من العبادة عنده فان عبادة الانجيل ليست شيئا سوى الايمان والصلاة

الاصل الرابع للنصرانية

(الايمان بغير المعقول)

وبعد هذه الاصول أصل رابع وهو عند عامة المسيحيين أصل الاصول لا يختلف فيه كاثوليك ولا أرثوذكس ولا بروتستانت، وهو ان الايمان منحة لا دخل للعقل فيها، وان من الدين ماهو فوق العقل بمعنى ما يناقض أحكام العقل، وهو مع ذلك مما يجب الايمان به. قال القديس أنسيلم « يجب أن تعتقد أولا بما يعرض على قلبك بدون نظر ثم اجتهد بعد ذلك في فهم ما اعتقدت » فليس الايمان وهو الوسيلة الفردة الى النجاة في حاجة الى نظر العقل، والكون وما فيه لا يهم المؤمن أن يجيل فيه نظره . وقول القديس « ثم اجتهد بعد ذلك في فهم ما اعتقدت » نوع من التفضل على النزعة البشرية الى الفهم (١) وعلى الميل الفطري الى تصور ما يتعلق به الاعتقاد، والا فمجرد الايمان كاف في الخلاص . ثم الويل كل الويل لطالب الفهم اذا أدى اجتهاده الى شيء يخالف ماتعلق به إيمانه فكأن معنى الفهم أن يخلق المؤمن لنفسه مايسلي به نفسه على ايمانه بغير المفهوم

---

(١) الى الفهم متعلق بالنزعة وهي النزوع والميل

نتائج هذه الاصول وآثارها

من هنا أعرض المسيحيون الاولون عن شواغل الكون وصدوا عن سبيل النظر فيه اظهاراً للغنى بالايمان والعبادة عن كل شيء سواهما وحجروا على همم النفوس ان تنهض إلا إلى الدعوة إلى ذلك الايمان وتلك العبادة ، ووسائل الدعوة هي الايمان والعبادة كذلك ، فاذا نزعت العقول إلى علم شيء من العالم وضعوا أمام نظرها كتب العهد القديم وحصروا العلم بين دفاتها استغناء بالوحي عن كل عمل العقل سوى فهمه من عباراته ، وليس يسوغ لكل ذي عقل فهمه ، بل انما يتلقى فهمه من رؤساء الكنيسة خوفا من الزيغ عن الايمان السليم —

البروتستانت رأوا أنه يجوز لغير الكنيسة تفسير الكتاب المقدس (١)

ثم ان إلقاء السيف ووضع التفريق بين الاقارب والاحبة انما جاء حافظا لذلك كله ، فاذا خطر على قلب أحد خاطر سوء يرمي إلى معارضة شيء من أمور الايمان المقررة وجب قطع الطريق على ذلك الخاطر ولم يجز في شأن صاحبه هوادة ولا مرحمة ، كما أفهمه المسيح بعمله ، على حسب ما ورد في الانجيل فقد قيل له : «٤٧ أمك وإخوتك واقفون

«١» هذه جملة استدراكية معترضة لدفع اعتراض من يحتج على إطلاق الحكم بحصر فهم نصوص الدين في رؤساء الكنيسة وقد كفر هؤلاء الرؤساء البروتستانت بهذه البدعة وغيرها

السماء والارض وما فيها وتاريخ الامم — مما يجب تسليمه مهما ضارب العقل أو خالف شاهد الحس ، فعلى الناس ان يؤمنوا به أولا ، ثم يجتهدوا ثانيا في حمل انفسهم على فهمه أي على تسليمه ايضا كما ترى.
وقال بعض فضلائهم : انه يمكن أن يؤخذ فن المعادن بأكمله من الكتاب المقدس

الاصل السادس للنصرانية

التفريق بين المسيحيين وغيرهم حتى الاقربين

ينتظم تلك الاصول كلها اصل سادس وهو آخرها فيما ارى ، ذلك الاصل هو الذي ورد في الاصحاح العاشر من انجيل متى وهو : « ٣٤ لا تظنوا اني جئت لألقي سلاما على الارض ، ما جئت لالقي سلاما بل سيفا ٣٥ فاني جئت لافرق الانسان ضد ابيه والابنة ضد امها والكنة ضد حماتها ٣٦ وأعداء الانسان اهل بيته »
وقد صرح في عدة مواضع من الانجيل ان الاخلال بشيء من محبة المسيح او بالانقياد إلى جميع ما اوصى به موجب للهلاك وان كان قد جاء في مواضع كثيرة ان الايمان وحده كاف في الخلاص غير أن روح الشدة التي جاءت في قوله «لا تظنوا أني جئت لالقي سلاما الخ» هي التي بقي أثرها في نفوس الاولين من المعتقدين بالدين المسيحي وعفت على آثار ما كان يصح ان تستشعره النفوس من بعض الوصايا الاخر

الكتاب ، وعند ماأظهر بلاج رأيه في ان الموت كان يوجد قبل آدم أي ان الحيوانات كان يدركها الموت قبل ان يخطيء آدم بالا كل من الشجرة قام لذلك ضوضاء وارتفعت جلبة وانتهى الجدال والجلاد إلى صدور أمر امبراطوري بقتل كل شخص يعتقد ذلك. يقول المؤرخ : وهكذا عد الاعتقاد بأن الموت كان يزور الاحياء قبل آدم جريمة على الملك

أحرقت كتب البطالسة والمصريين بالاسكندرية على عهد جول قيصر ثم ان تيوفيل بطريرك الاسكندرية انتحل أدنى الاسباب لاثارة ثورة في المدينة لاتلاف ما بقي في مكتبة البطالسة بعضه بالاحراق وبعضه بالتبديد . قال أوروسيوس المؤرخ انه رأى أدراج المكتبة خالية من الكتب بعد ان نال تيوفيل الامر الامبراطوري باتلافها بنحو عشرين سنة

ثم جاء بعد تيوفيل ابن أخته سيريل وكان خطيبا مفوها له على الشعب سلطان بفصاحته. وكان في الاسكندرية بنت تسمى هيباتي الرياضية تشتغل بالعلوم والفلسفة، وكان يجتمع اليها كثير من أهل النظر في العلوم الرياضية ، وكان لايخلو مجلسها من البحث في أمور أخر خصوصاً في هذه المسائل الثلاث : من أنا ؟ وإلى أين أذهب ؟ وماذا يمكنني ان أعلم ؟ فلم يحتمل ذلك القديس سيريل، مع أن البنت لم تكن مسيحية بل كانت على دين آبائها المصريين ، فأخذ يثير الشعب عليها حتى قعدوا لها وقبضوا عليها في الطريق سائرة إلى دار ندوتها،

خارجا طالبين أن يكلموك ٤٨ فأجاب وقال للقائل له من هي أمي ، ومن هم إخوتي ٤٩ ثم مد يده نحو تلاميذه وقال ها أمي وإخوتي » ونحو ذلك مما يدل على وجوب المقاطعة بين من يعتقد بالدين المسيحي ، ومن يحيد عن شيء من معتقده . ولا يخفى ان الشيء يكون بزرة ثم نبتا ثم شجراً فانظر إلى ماصار أمر هذه البدايات بحكم الطبيعة

وقر في نفوس المسيحيين أن السلامة في ترك الفكر والاخذ بالتسليم وتقرر عند القوم قاعدة « ان الجهالة أم التقوى » (وكثير من أهل الاديان مسيحيين ومسلمين لا يزالون يجرونّ على هذه القاعدة ببركة ماورثوا عن أبناء الزمن الغابر) فحصروا التعليم في الاديار ومنعت الكنيسة أن ينشر التعليم بين العامة إلا ما كان دعوة إلى الصلاح وتقرير الايمان على وجه ظاهر . وبقي غير القسيسين في جهالة حتى بأمور الدين وحقائقه وأسراره .

ظهرت ذات الذنب التي تنسب إلى هالي (١) في سنة ١٦٨٢ فاضطربت لظهورها أوربا ولجأوا إلى البابا واستجاروا به فأجارهم وطردها من الجو ، فولت في الفضاء مذعورة من لعنته ولم تعد إلا بعد خمس وسبعين سنة ؟؟

لم يكن يسمح لأحد أن يبدي رأيا يخالف صريح مافي

«١» اي ظهر النجم ذو الذنب الذي ينسب الى « هالي » ولا أدري كيف فاتني مراجعة الكاتب «رح» في تأنيث هذا النجم بوصفه بذات الذنب وكذا التعليق عليه بعده ؟

العقيدة الكاثوليكية : « لايجوز ان يترك لأولاد الجاحدين سوى الحياة وترك الحياة لهم منّ واحسان » فلم يقصر الجزاء على الجاحدين ولكن عداه إلى أولادهم، وعد ترك الحياة لأولادهم يتمتعون بها ضربا من الاحسان عليهم، لانهم لاحق لهم في ان يعيشوا وقد جحد آباؤهم

مقاومة النصرانية للعلم

لا أجد في التاريخ ذكراً للعلم والفلسفة بعد ظهور المسيحية في مظهر القوة لعهد قسطنطين وما بعده إلا في أثناء المنازعات الدينية التي كان يفصل فيها تارة بسلطان الملوك، وأخرى بجمع المجامع، وثالثة بسفك الدماء، فتخمد شعلة العلم وينتصر الدين المحض. وانما الذكر كل الذكر لما كان بين المسيحية وما جاورها من الملل الاخرى من الحروب الدينية للحمل على العقيدة بما كان يعتقد المسيحيون، وما كان يقع بين ملوك أوربا من التسافك في الدماء باغراء رؤساء الكنيسة، وأمر ذلك معروف عند من له إلمام بالتاريخ وليس من موضوعنا الكلام فيه

ولكن أرى شبه نزاع بين العلم والدين ظهر في اوربا بعد ظهور الاسلام واستقرار سلطانه في بلاد الاندلس واحتكاك الاوربيين بالمسلمين في الحروب الصليبية

وجردوها من ثيابها وأخذوها إلى الكنيسة مكشوفة العورة وقتلوها هناك ، ثم قطع جسمها وجرد اللحم عن العظم وما بقي منها ألقي في النار . يقول المؤرخ راوي هذه القصة : ولم يسئل سيريل عما صنع بهيباتي ولم تنظر الحكومة الرومانية فيما وقع عليها ، ولعل ذلك كان أول ماتقررت تلك القاعدة : « الغاية تشفع للوسيلة »

مامن عقيدة ظهرت في المسيحية وأريد تقريرها من فريق ونازع فيها فريق إلا وقد سالت لها الدماء ، فليراجع التاريخ لتتمثل أرض مصر مصبوغة بدماء المسيحيين من فريقين مختلفين عند ما أريد تقرير عبادة العذراء واتخاذها لله أما . كان ذلك في طبيعة الدين : ان من لم يتبع المسيح فهو هالك والهالك لا يستحق الحياة . ألم تر في الاصحاح الخامس من الاعمال إلى قصة الرجل الذي باع جميع ماعنده ، وعند ماجاء إلى بطرس أعطاه الثمن وادخر لنفسه شيئاً أخفاه عنه ، فاطلع بطرس على حقيقة الامر ، ووبخ الرجل وتصرف فيه بسلب حياته من طريق المعجزة ، ثم جاءت امرأته وكان لها اطلاع على ما أخفى زوجها ولم تنهه فوبخها بطرس وأخبرها بموت زوجها فماتت هي أيضاً . فاذا كان الله يسلب الحياة جزاء على اختلاس الرجل شيئاً من مال نفسه لم يقدمه هدية المرسل فكيف تكون الحياة من حقه اذا خالف خلفاء الله في الارض ونابذهم فيما يعتقدون ؟

قال البابا انوثان الثالث ـ عند الكلام في مصادرة الذين يخالفون

قال دي رومنيس: ان قوس قزح ليست قوسا حربية بيد الله ينتقم بها من عباده اذا أراد بل هي من انعكاس ضوء الشمس في نقط الماء ، فجلب الى روما وحبس حتى مات ثم حوكمت جثته وكتبه فحكم عليها وألقيت في النار ، وقيل في علة الحكم : انه أراد الصلح بين كنيستي روما وانكلترا ، وأي ذنب اعظم من هذا الصلح ؟ هو اضخم بلا ريب من ذنب القول بأن قوس قزح من انعكاس ضوء الشمس في نقط الماء

مراقبة المطبوعات ومحاكمة التفتيش

أنشئت المراقبة على المطبوعات ، وحتم على كل مؤلف وكل طابع ان يعرض مؤلفه او ما يريد طبعه على القسيس او المجلس الذي عين للمراقبة ، وصدرت احكام المجمع المقدس بحرمان من يطبع شيئا لم يعرض على المراقب او ينشر شيئا لم يأذن المراقب بنشره ، وأوعز إلى هذا المراقب ان يدقق النظر حتى لا ينشر ما فيه شيء يومىء إلى مخالفة العقيدة الكاثوليكية ، ووضعت غرامات ثقيلة على ارباب المطابع يعاقبون بها فوق الحرمان من الكنيسة [كأن الحكومة العثمانية على ما تنشر بعض الجرائد اخذت نسخة من قرار المجمع المقدس لتجري عليه مراقبة المطبوعات ولكن للسياسة لا للدين]

أنشئت محكمة التفتيش لمقاومة العلم والفلسفة عند ما خيف

رجع الآلاف من الغزاة الصليبيين الى بلادهم وحملوا الى الناس أخباراً تناقض ما كان ينشره دعاة الحرب من رؤساء الكنيسة من أن المسلمين جماعة من الوثنيين غلبوا على الارض المقدسة وأجلوا عنها دين التوحيد، ونفوا منها كل فضيلة واخلاص، وهم وحوش ضارية، وحيوانات مفترسة. فلما قفل الغزاة الى ديارهم قصوا على قومهم أن أعداءهم كانوا اهل دين وتوحيد ومروءة وذوي ود ووفاء وفضل ومجاملة

ثم كان الخليفة الحكم الثاني جعل من بلاد الاندلس فردوسا، كما قال الفيلسوف الامير كاني، وكان اليهود والنصارى يتلاقون في تلك البلاد تحت ظلال الامن والحرية. قال بطرس المحترم الشهير: انه رأى كثيرا من العلماء يأتون الى تلك البلاد لتلقي العلوم الفلكية. حتى من بلاد انكلترا، وأولئك الذين يسعون الى طلب العلوم من أي بلاد جاءوا كانوا يجدون فيها رحبا وسعة، وكان قصر الخليفة يشبه أن يكون مصنعا للكتب — نسخ وتذهيب وتجليد الخ ماقال.

ثم انتشرت صناعة الورق التي اخترعها العرب، ثم وجدت المطبعة وسهل على الناس أن ينشروا آراءهم بعد أن تنبهت أفكارهم بما جلب اليهم رسل العلم الذين حملوه اليهم من أهالي اسبانيا ومن حملوه مما جاورها. ثم انساب الى العقول شيء مما سماه الاوربيون فلسفة ابن رشد، عند ذلك اهتمت المسيحية بالامر وأخذت تحارب كل مايظهر على ألسنة الناس أو يرد على أسماعهم مما يخالف مافي الكتب المقدسة وتقاليد الكنيسة.

في المخازن . في المطابخ . في المغارات . في الغابات . وفي الحقول. فوفت بما كلفت مع البهجة والسرور اللائقين بأصحاب الغيرة على الدين ، عملا بالقول الجليل « ماجئت لألقي سلاما بل سيفا »

كان يؤخذ الرهبان في صوامعهم ، والقسوس في كنائسهم ، والاشراف في قصورهم ، والتجار بين بضائعهم ، والصناع في مصانعهم ، والعامة في بيوتهم ومزارعهم ، وحيثما وجدوا ، وأينما ثقفوا ، ويوقفون أمام المحكمة ، وتصدر الاحكام عليهم يوم اتهامهم

قرر مجمع «لاتران» أن يكون من وسائل الاطلاع على أفكار الناس الاعتراف الواجب أداؤه على المذهب الكاثوليكي أمام القسيس في الكنيسة (أي الاعتراف بالذنوب طلبا لغفرانها)

تذهب البنت أو الزوجة او الاخت لاجل الاعتراف بين يدي القسيس يوم الاحد ، فيكون مما تسئل عنه عقيدة أبيها أو زوجها أو أخيها وما يبدر من لسانه في بيته ، وما يظهره في أعماله بين أهله . فاذا وجد القسيس متلقي الاعتراف شيئا من الشبهة في طلب العلم غير المقدس على من سأل عنه رفع أمره الى المحكمة ، فينقض شهاب التهمة عليه . فاذا سأل عن الشاهد الذي عول عليه في اتهامه لا يجاب ، وإنما يقام التعذيب مقام شخص الشاهد وهو من أهله حتى يعترف

أوقعت هذه المحكمة المقدسة من الرعب في قلوب اهل أوربا ماخيل لكل من يلمع في ذهنه شيء من نور الفكر اذا نظر حوله أو التفت وراءه ان رسول الشؤم يتبعه ، وان السلاسل والاغلال

ظهورهما بسعي تلامذة ابن رشد وتلامذة تلامذته خصوصا في جنوب فرنسا وإيطاليا. انشئت هذه المحكمة الغريبة بطلب الراهب توركماندا

قامت المحكمة باعمالها حق القيام ففي مدة ١٨ سنة — من سنة ١٤٨١ إلى سنة ١٤٩٩ — حكمت على ١٠ آلاف ومائتين وعشرين شخصا بان يحرقوا وهم احياء فأحرقوا ، وعلى ٦ آلاف وثمانمائة وستين بالشنق بعد التشهير فشهروا وشنقوا ، وعلى سبعة وتسعين ألفا وثلاثة وعشرين شخصا بعقوبات مختلفة فنفذت ، ثم احرقت كل توراة بالعبرية

ماذا كانت وسائل التحقيق عند هذه المحكمة « المقدسة » ؟ وسيلة واحدة هي ان يحبس المتهم وتجري عليه انواع العذاب المختلفة بآلات التعذيب المتنوعة إلى ان يعترف بما نسب اليه ، وعند ذلك يصدر الحكم ويعقبه التنفيذ

قرر مجمع لاتران سنة ١٥٠٢ أن يلعن كل من ينظر في فلسفة ابن رشد . وطفق الدومينكان يتخذون من ابن رشد ولعنه ولعن من ينظر في كلامه شيئا من الصناعة والعبادة ، لكن ذلك لم يمنع الامراء وطلاب العلوم من كل طبقة من تلمس الوسائل للوصول إلى شيء من كتبه ، وتحلية العقول ببعض أفكاره

اشتدت محكمة التفتيش في طلب اولئك المجرمين طلاب العلم والسعاة إلى كسبه ، ونيط بها كشف البدعة والحكم فيها مهما اشتد خفاؤها : في المدن . في البيوت . في السراديب . في الانفاق .

انه لا نجاة لكثير منها فقد اغتالها الجوع ومشقة السفر مع العدم والفقر
وفي فبراير (شباط) سنة ١٥٠٢ نشر الامر بطرد أعداء الله المغاربة (المسلمين) من اشبيلية وما حولها — من لم يقبل المعمودية منهم يترك بلاد اسبانيا قبل شهر ابريل (نيسان) وأبيح لهم ان يبيعوا مايملكون على الشرط الذي وضع لليهود، ولكن وضع للمسلمين شرط آخر وهو ان لا يذهبوا في طريق يؤدي إلى بلاد اسلامية، ومن خالف فجزاؤه القتل . فهؤلاء المساكين نفوا جميعا إلى القتل إن لم يكن قتل الجزاء عند الرجوع فالموت ملاقيهم بالتعب مع العري والجوع

ألا يعجب القاريء اذا رأى ان (برونو) يحرق بالنار حيا بعد حبس طويل سنة ١٦٠٠ لانه قال بقول الصوفية في وحدة الوجود وقال ان هذا العالم يحتوي على عوالم كثيرة ؟ الحمد لله رب العالمين

⁂

ظهر القول بكروية الارض — ذلك الامر الذي عرفه المسلمون وصار رأيا لهم في أول خلافة بني العباس ولم تتحرك له شعرة في بدن — فأحدث اضطرابا شديداً في عالم النصرانية، ولا يسع هذا المقال ماوقع من الحوادث في شأنه

هل يصدق القاريء ان ماقصده كريستوف كولمب من السفر في المحيط الاطلانطيقي لعله يكتشف أرضا جديدة كان من الامور التي اهتمت لها الكنيسة وحكم مجمع سلامانك بانه مخالف لاصول الدين،

أسبق الى عنقه ويديه، من ورد الفكرة العلمية اليه ، وقال باغلياديس ما كان يقوله جميع الناس لذلك العهد « يقرب من المحال أن يكون الشخص مسيحيا ويموت على فراشه »

حكمت هذه المحكمة من يوم نشأتها ١٤٨١ الى سنة ١٨٠٨ على ثلاثمائة وأربعين ألف نسمة منهم نحو مائتي ألف أحرقوا بالنار أحياء

اضطهاد المسيحية للمسلمين واليهود والعلماء عامة

لما كان ابن رشد هو الينبوع الذي تفجر منه ماء العلم والحرية في أوربا على زعم القسوس، وكان ابن رشد استاذا يتعلم عنده كثير من اليهود وقد اتهموا بنشر أفكاره وآرائه ، ثم هو مع ذلك مسلم، صب غضب الكنيسة على اليهود والمسلمين معا ، فصدر الامر في ٣٠ مارس (آذار) ١٤٩٢ بأن كل يهودي لم يقبل المعمودية في أي سن كان وعلى أي حال كان، يجب أن يترك بلاد اسبانيا قبل شهر يوليو (تموز) ومن رجع منهم الى هذه البلاد عوقب بالقتل وأبيح لهم أن يبيعوا مايملكون من عقار ومنقول بشرط أن لا يأخذوا في الثمن ذهبا ولا فضة وانما يأخذون الاثمان عروضا وحوالات. ومن ذا الذي يشتري اليوم بثمن ماياخذه بعد ثلاثة اشهر بلاثمن؟ (يعني ان أموال اليهود تكون مباحة بعد جلائهم الذي تم في يوليو) وصدر امر (توركماندو) أن لا يساعدهم أحد من سكان اسبانيا في أمر من أمورهم . وهكذا خرج اليهود تاركين كل ما يملكون بارواحهم على

(مقاومة تسهيل الولادة)

أي مقاومة لم يلاقها اكتشاف تخدير المرأة عند الولادة حتى لاتحس بألم الطلق . اكتشاف أمير كاني رأت حضرات القسوس فيه انه يخلص المرأة من تلك اللعنة أو تلك العقوبة التي سجلت عليها في سفر التكوين [إذ جاء في الاصحاح الثالث منه : وقال للمرأة تكثيراً اكثر أتعاب حملك، بالوجع تلدين اولاداً]

مقاومة السلطة المدنية وحرية الاعتقاد

نشر البابا منشوراً في سنة ١٨٦٤ جاء فيه لعن كل من يقول بجواز خضوع الكنيسة لسلطة مدنية أو جواز أن يفسر أحد شيئا من الكتب المقدسة على خلاف ما ترى الكنيسة، أو يعتقد بان الشخص حر فيما يعتقد ويدين به ربه . وفي منشور له سنة ١٨٦٨ ان المؤمنين يجب عليهم أن يفدوا نفوذ الكنيسة بارواحهم وأموالهم، وعليهم ان ينزلوا لها عن آرائهم وأفكارهم، ودعا الروم الارثوذكس والبروتستانت إلى الخضوع للكنيسة الرومانية على هذا الوجه

في سنة ١٨٧١ كان النزاع بين حكومة بروسيا والبابا في عزل استاذ في إحدى الكليات رأى رأيا لا يروق للحزب الكاثوليكي فحرمه البابا وطلب من الحكومة عزله ، وكانت إحدى المعضلات السياسية، غير ان عزمة بسمارك نصرت مدنية القرن التاسع عشر على سلطان الكنيسة، وأبقت الاستاذ وجعلت التعليم تحت السلطة المدنية

ثم أعيد النظر فيه وعرض على أقوال الآباء من كريزيستوم واوغستين، وجيروم وغريغوار وبازيل وانبرواز وعلى رسائل الرسل والاناجيل والنبوات والزبور والاسفار الخمسة، ولم ينتج هذا العرض شيئاً ، ولكن ساعده على ماقصده بعض الملوك رغم الكنيسة كما هو معلوم . قال كريستوف كولمب «ان الذي أوحى اليه هذا القصد النبيل هي كتب ابن رشد» من هنا تفهم لم قامت له الكنيسة وقعدت ؟

قاعدة سلطان رجال الكنيسة على غيرهم

ماأشد تمسك الكنيسة بهذا الاصل الجليل « السلطة للقسوس والطاعة على العامة» كل رأي لم يصدر عن ذلك المصدر الديني الذي يربط ويحل في الارض والسماء فهو باطل تجب مقاومته بكل مايستطاع، لهذا حكم على غاليلي الذي ذهب إلى ان حركة الكواكب هي على النظام المعروف عند الفلكيين اليوم

(مقاومة الكنيسة للحقن تحت الجلد)

هل تدري ماذا حصل من المقاومة لادخال الحقن تحت الجلد بمادة المرض ؟ اكتشفت هذه الطريقة الطبية عند المسلمين في الاستانة ثم نقلتها إلى أوروبا امرأة تسمى ماري مونتاجو سنة ١٧٢١ فقامت قيامة القسوس وعارضوا في استعمالها واحتيج في تعضيدها إلى التماس المساعدة من ملك انكلترا ، وعادت هذه الشدة في المعارضة عند ما اكتشفت طريقة تطعيم الجدري

من يخالف معتقد الطائفة، وقد أمر كالفان(١) باحراق (سيرفيت) في جنيف لانه كان يعتقد أن الدين المسيحي كان قد دخل عليه شيء من الابتداع قبل مجمع نيقة ، وكان يقول ان روح القدس ينعش الطبيعة بأسرها . فكان جزاؤه على هذا أن شوي على النار حتى مات ،وهكذا أحرق (فاييني) في تلوز سنة ١٦٢٩

كان لوثير أشد الناس انكاراً على من ينظر في فلسفة ارسطو، وكان ذلك المصلح يلقب هذا الفيلسوف بالخنزير الدنس الكذاب ونحو ذلك من الالقاب التي لا بأس بها اذا صدرت من أهل الغيرة على الدين في طريق الدفاع عنه !! وكان كلفان أقل شتما للفيلسوف من لوثير لكنه لم يكن أحسن ظنا به ولا أوسع صدراً لمن يطالع على شيء من كتبه . وكان علماء المسلمين يلقبون هذا الفيلسوف « المعلم الاول » فتأمل الفرق بين الفريقين !!

قالوا : البروتستانت قاموا يطالبون بالحرية في فهم الكتب المقدسة وبابطال السلطة على غفران الذنوب والتجارة ببيع الثواب والسعادة الاخروية وابطال عبادة الصور . ولكنهم لم يغيروا شيئا من الاعتقاد بان الكتب المقدسة هي نبراس الهداية في طريق العلم البشري، كما انها منبع نور الايمان بالدين الالهي، وانه لا يباح للعقل أن ينساق في نظره إلى مايخالف شيئا مما حوته وانه لا حاجة الى شيء من العلم وراء ماورد فيها . وبالجملة انهم لم يبطلوا أصلا من الاصول

١) كلفان هو الزعيم الثاني للبروتستانت ولوثر الاول

(مقاومة الجمعيات العلمية والكتب)

لا اذكر الجمعيات العلمية [الاكادميات] التي ألغيت، والاجتماعات التي عطلت، لا لشيء كان فيها سوى هداية البشر إلى منافعهم وتنوير بصائرهم بكشف ما احتجب عنهم من سر الخليقة بالبحث النظري، ومن الطريق العقلي، من غير استشارة المسيطر الالهي، ـ وهو الكنيسة ـ ولكن أذكر شيئا واحداً وهو ان الكردينال اكسيمنيس احرق في غرناطة ٨ آلاف كتاب بخط القلم فيها كثير من ترجمة الكتب المعول عليها عند علماء اوربا لذلك العهد

البروتستانت أو الاصلاح

ربما يقول قائل : أن هـذا الذي ذكرت هو عمل الكنيسة الرومانية الكاثوليكية ، ولكن قد قام في المسيحية مصلحون يرون إرجاع الدين الى أصل الكتب المقدسة ويبيحون للعامة ان ينظروا فيها ويفهموها، وقد رفعوا تلك السيطرة عن الضمائر والعقول، ومن عهد ظهور الاصلاح والرجوع الى اصول الدين الاولى بزغت شمس العلم بالغرب وبسط للعلم بساط التسامح ،وذلك لا يمكن أن يكون الا جريا مع طبيعة الدين

لا أذكر في الجواب عن ذلك الا ماذكر البروتستانت أنفسهم في تاريخ الاصلاح : استمرت عقوبة الموت قانونا يحكم به على كل

يفيد الفصل اذا كان دين الملك نفسه يقضي عليه بمعاداة العلم؟ أفلا يغلب اعتقاد الملك وما يملك نفسه مما فيه نجاته الروحية على مطالب الملك؟ وكم من ملك جعل مصالح مملكته قرباناً لسلطان عقيدته؟ هب ان مصالح الملك تكون دائما اغلب على النفس من حكم العقيدة وقاهر الايمان والوجدان، وقد أقام الدين سلطتين منفصلتين: إحداهما تحل وتربط في الارض وفي السماء فيما هو من خاصة الدين، والاخرى تحل وتربط في الارض فيما هو من خصائص الدنيا، أفلا يكون هذا الفصل قاضيا بتنازع السلطتين وطلب كل واحدة منهما التغلب على الاخرى فيمن تحت رعايتهما معا؟ وهل يسهل على السلطة الدينية أن تدع رعاياها تتصرف في أبدانهم وأموالهم بل وفي عقولهم ايدي الملوك بما تقتضيه مصالح الملك الفاني؟ إذا كان ذلك التصرف مخالفا لما جاء في كنز المعارف وهو الكتب السماوية وتأويل الرؤساء الروحيين وسننهم، فاذا همت هذه السلطة بالمعارضة أفتصبر الاخرى؟ هذا هو الذي وقع في العالم المسيحي منذ ظهرت سلطة الدين

كيف يتسنى للسلطة المدنية أن تتغلب على السلطة الدينية وتقف بها عند حدها؟ والسلطة الدينية انما تستمد حكمها من الله ثم تمد نفوذها بتلك القوة الى أعماق قلوب الناس وتديرها كيف تشاء، والملك لاقوة له الا بأولئك الناس المغلوبين للسلطة الدينية؟

لا يتأتى للملك ان يغالب تلك القوة الا بعد أن يتناول من الوسائل مالا يعد لاضعاف سلطتها. نعم هذا الفصل يسهل التسامح لو كانت

الستة التي تقدمت إلا انهم قالوا بمنع غلو الرؤساء في سلطتهم المبنية على الاصل الثاني في سابق قولنا.

قالوا : ولهذا لم يكن مذهب الاصلاح أخف وطأة على العلم ولا أفضل معاملة له من الكاثوليك، لان كلا المذهبين يرجع إلى طبيعة واحدة (وهي القائمة على الاصول الستة) ولم يكن لاهل النظر العقلي جزاء في كلتا الملتين إلا القتل وسفك الدم

لو كنت ممن يحب الجدال في الدين لعددت فيما ذكرته من عناصر الدين المسيحي ماتضمنه قول بعض الناقدين عند الكلام على الحروب المسيحية واضطهادات الكنيسة . « ماأهون الدم على من يمثل في عبادته أكل الدم ، وعلى من يعتقد ان خلاص العالم الانساني من الخطيئة انما كان بسفك الدم البريء على يد المعتدي الاثيم » لكني في بحثي هذا لا أريد أن أستعمل قوة الخيال ، ولا ان أذكر ما يعد من قبيل الجدال، وانما آتي بما هو حكاية حال، ليس للنظر فيها مقال ،

الفصل بين السلطتين في المسيحية

بقي علينا الكلام فيما جعلته الجامعة أساسا للفصل بين السلطتين الدينية والملكية وبه كانت طبيعة الدين المسيحي أدعى إلى التسامح مع العلم في نظارها . لو سلمنا ان في تلك العبارة معنى الفصل - كما قالت الجامعة . وقال كثير غيرها ممن أرادوا مقاومة السلطة الدينية - فماذا

أما رأيي ورأي اهل العقيدة الصحيحة من المسلمين في المسيح عليه السلام ودينه فهو على غير مارآه القاريء ، إنا نعتقد ان المسيح روح الله وكلمته(١) ورسوله الى بني اسرائيل بعث مصدقا لما بين يديه من التوراة ، وجاءهم من الدين بما فيه هدى لهم ، ورشاد في شؤون معاشهم ومعادهم ، ولم يطالبهم بتعطيل قوة من قواهم التي منحهم الله تعالى إياها ، بل طالبهم بشكر الله تعالى عليها ، ولا يشكر حق الشكر الا باستعمالها جميعها فيما أعدها الله له . والعقل من اجلّ القوى بل هو قوة القوى الانسانية وعمادها ، والكون جميعه هو صحيفته التي ينظر فيها وكتابه الذي يتلوه ، وكل ما يقرأ فيه فهو هداية الى الله وسبيل الوصول اليه . وكل ما صح عندنا عن السيد المسيح لا يخالفه شيء منه . هذا الذي نعتقد . فان صح عنه شيء يكون في ظاهره مخالفة لهذه الاصول أمكننا تأويله حتى يرجع معناه اليها او وكلنا الامر فيه الى الله وقلنا (لا علم لنا الا ما علمتنا)

الدين دين الله وهو دين واحد في الاولين والآخرين ، لا تختلف إلا صوره ومظاهره . وأما روحه وحقيقته ماطولب به العالمون

---

١) اي من روح الله ، فالاضافة بمعنى من أو روح من الله لا من الشيطان وكلمة التكوينية اي ارادته المعبر عنها بقوله للشيء (كن فيكون) قال تعالى فيه (إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها الى مريم وروح منه) وقال في أمه (فنفخنا فيها من روحنا)

الابدان التي يحكمها الملك يمكنها أن تاتي أعمالها على حدة مستقلة عن الارواح التي تحيا بها ، والارواح كذلك تأتي أعمالها بدون الابدان التي تحمل قواها

ثم هل هذا هو معنى قول الانجيل ؟ القصة على ماجاء في الانجيل أن بعض المرائين أراد أن يتسقط المسيح ليأخذ عليه ماينم به قوما له : أيجوز أن نعطي جزية لقيصر ؟ فاجاب : لم تجربونني ؟ ائتوني بدينار لانظر اليه . فأتوه بدينار فقال : لمن هذه الصورة والكتابة ؟ قالوا : لقيصر ، فقال : أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله . فمعناه الظاهر من سياق القصة : أن صاحب السكة التي تتعاملون بها إذا ضرب عليكم أن تدفعوا منها شيئا فادفعوه له ، أما قلوبكم وعقولكم وجميع ماهو من الله وعليه طابع صنعته فلا تعطوا منه لقيصر شيئاً ، العلم ليس مما عليه طابع قيصر بل عليه طابع الله ، فلا يمكن أن يكون العلم تحت سلطة غير السلطة الروحانية. فأي تسامح مع العلم في هذا ؟

(اعتقاد المسلمين في المسيح والمسيحية)

هذا الذي عرضناه من طبيعة الدين المسيحي وأوردناه من مشاربه فيما بعد نشأته ، وما وقع من حوادث اهله مع طلاب العلم ورواد المعارف في كل زمن الى مايقرب من أيامنا هذه ، ـ كل ذلك ماخوذ من تاريخهم الذي كتبوه عن انفسهم ، ومن نصوص كتبهم الدينية التي يتوكؤن عليها فيماذكرنا من سيرتهم وأعمالهم

القسم الثانى فى الاسلام

(طبيعة الاسلام مع العلم بمقتضى أصوله)

تمهيد للاصل الاول

للاسلام في الحقيقة دعوتان — دعوة الى الاعتقاد بوجود الله وتوحيده ، ودعوة الى التصديق برسالة محمد ﷺ

فاما الدعوة الاولى فلم يعول فيها إلا على تنبيه العقل البشري وتوجيهه إلى النظر في الكون واستعمال القياس الصحيح والرجوع إلى ماحواه الكون من النظام والترتيب ، وتعاقد الاسباب والمسببات ليصل بذلك إلى أن للكون صانعا واجب الوجود عالما حكيما قادراً ، وان ذلك الصانع واحد لوحدة النظام في الاكوان. وأطلق للعقل البشري أن يجري في سبيله الذي سنته له الفطرة بدون تقييد فنبهه إلى أن خلق السموات الارض واختلاف الليل والنهار وتحريك الرياح على وجه يتيسر للبشر أن يستعملها في تسخير الفلك لمنافعه ، وارسال تلك الرياح لتثير السحاب فينزل من السحاب ماء فتحيا به الارض بعد موتها وتنبت ماشاء الله من النبات والشجر ، ممافيه رزق الحي وحفاظ حياته ـ كل ذلك من آيات الله عليه أن يتدبر فيها ليصل إلى معرفته

اجمعون على ألسن الانبياء والمرسلين فهو لا يتغير: ايمان بالله وحده(١) وإخلاص له في العبادة، ومعاونة الناس بعضهم لبعض في الخير، وكف أذاهم بعضهم عن بعض ما قدروا. وهذا لا ينافي الارتقاء في الدين بارتقاء عقول البشر واستعدادهم لكمال الهداية، ونعتقد ان دين الاسلام جاء ليجمع البشر كلهم على هذه الاصول، ومن أهم وظائفه ازالة الخلاف الواقع بين اهل الكتاب ودعوتهم الى الاتفاق والاخاء والمودة والائتلاف، وهذا ما عمل عليه المسلمون قرنا بعد قرن بحسب قوة تمسكهم بالاسلام

فاذا سأل سائل: اذا كان ذلك الذي قدمت فيما سبق هو اعتراف فضلاء الاوربيين انفسهم في منافاة طبيعة الدين للعلم واشتداده في معاداته، فما هذا الانقلاب الذي حصل في اوربا وما هذا التسامح الذي يتمتع به العلم اليوم في أقطارها؟ فجوابه في الكلام على الامر الرابع مما ذكرت الجامعة وهو يكون بعد عرض طبيعة الدين الاسلامي، وما يليق أن يكون له مع العلم وما انجر اليه الحال بمقتضى تلك الطبيعة، وما عرض عليها مما سترها وحال بينها وبين اثرها في أخريات الايام، وسنوجز القول فيه كما أوجزناه فيما مضى

(١) أي بربوبيته وألوهيته وحده أي لا رب غيره، يدبر أمور الخلق ويشرع لهم الدين ولا إله غيره يستحق العبادة

السموات والارض واختلاف ألسنتكم وألوانكم) وأمثال ذلك .
فلو أردت سرد جميعها لأتيت بأكثر من ثلث القرآن بل من نصفه في مقالي هذا .

يذكر القرآن اجمالا من ثار الله في الاكوان تحريكا للعبرة ، وتذكيراً بالنعمة ، وحفزاً للفكرة ، لاتقريراً لقواعد الطبيعة ، ولا إلزاما باعتقاد خاص في الخليقة ، وهو في الاستدلال على التوحيد لم يفارق هذه السبيل ، أنظر كيف يقرع بالدليل (لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا) (ما اتخذ الله من ولد، وما كان معه من إله ، اذاً لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض ، سبحان الله عما يصفون)

فالاسلام في هـذه الدعوة والمطالبة بالايمان بالله ووحدانيته لايعتمد على شيء سوى الدليل العقلي ، والفـكر الانساني الذي يجري على نظامه الفطري (وهو مانسميه بالنظام الطبيعي) فلا يدهشك بخارق للعادة ، ولا يغشي بصرك بأطوار غير معتادة، ولا يخرس لسانك بقـارعة سماوية ، ولا يقطع حركة فـكرك بصيحة إلهية ، وقد اتفق المسلمون ـ إلا قليلا ممن لايعتد برأيه فيهم ـ على أن الاعتقاد بالله مقدم على الاعتقاد بالنبوات وأنه لا يمكن الايمان بالرسل إلا بعد الايمان بالله . فلا يصح أن يؤخذ الايمان بالله من

ثم قد يزيده تنبيها بذكر أصل للكون يمكن الوصول إلى شيء منه بالبحث في عوالمه، فيذكر ما كان عليه الامر في أول خلق السموات والارض كما جاء في آية (أو لم ير الذين كفروا أن السموات والارض كانتا رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كل شيء حي أفلا يؤمنون) ونحوها من الآيات . وهو اطلاق لعنان العقل ليجري شوطه الذي قدر له في طريق الوصول الى ما كانت عليه الاكوان ، وقد يزيد التنبيه تأثيراً في ايقاظ العقل مايؤيد ذلك من السنة، كما جاء في خبر من سأل النبي صلى الله عليه وسلم وآله : أين كان ربنا قبل السموات والارض فأجابه عليه السلام « كان في عماء تحته هواء » (١) والعماء عندهم السحاب . فترى القرآن في مثل هذه المسألة الكبرى لايقيد العقل بكتاب ، ولا يقف به عند باب ، ولا يطالبه فيه بحساب ، فليقرأ القاريء القرآن يغنني عن سرد الآيات الداعية الى النظر في آيات الكون ـ (أو لم ينظروا في ملكوت السموات والارض وما خلق الله من شيء ؟) . (وآية لهم الارض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حبا فمنه يأكلون) ـ (ومن آياته خلق

---

(١) رواه ابن جرير والطبراني وابو الشيخ في العظمة عن ابي رزين السائل (رض) والحديث من المتشابهات ولكنه يوافق مايقوله علماء الكون في أصل مادة العالم التي يسميها بعضهم السديم . وفي معنى الحديث قوله تعالى في التكوين (ثم استوى الى السماء وهي دخان) ،

الاستدلال فهو على سبيل تقوية العقد لمن حصل اصله ، وفضل من التأكيد لمن سلمه من أهله

ذلك الخارق المتواتر المعول عليه في الاستدلال لتحصيل اليقين هو القرآن وحده . والدليل على انه معجزة خارقة للعادة تدل على ان موحيه هو الله وحده وليس من اختراع البشر — هو انه جاء على لسان أمي لم يتعلم الكتاب ولم يمارس العلوم ، وقد نزل على وتيرة واحدة ، هاديا للضال ، مقوما للمعوج ، كافلا بنظام عام لحياة من يهتدي به من الامم ، منقذا لهم من خسران كانوا فيه ، وهلاك كانوا أشرفوا عليه (١) وهو مع ذلك من بلاغة الاساوب على مالم يرتق اليه كلام سواه ، حتى لقد دعى الفصحاء والبلغاء أن يعارضوه بشيء من مثله فعجزوا ولجؤا الى المجالدة بالسيوف وسفك الدماء واضطهاد المؤمنين به الى أن ألجؤوهم الى الدفاع عن حقهم ، وكان من أمرهم ما كان من انتصار الحق على الباطل ، وظهور شمس الاسلام تمد عالمها باضوائها ، وتنشر انوارها في جوائها

---

(١) هذا أقوى وجوه الاعجاز المعنوي في القرآن وهو اشتماله على العلم والعرفان والهداية الكافلة بحقيتها وتاثيرها لصلاح الامم الفاسدة العقائد والاخلاق والاعمال ، بعد إنقاذها من الضلال ، وذكر بعده اعجازه اللفظي ، وفيه معجزات أخرى بيناها في تفسير آية التحدي من سورة البقرة المذكورة في الصفحة التالية فتراجع في الجزء الاول من تفسير المنار (صفحة ١٩٠—٢٢٩)

كلام الرسل ولا من الكتب المنزلة (١) فانه لا يعقل أن تؤمن بكتاب أنزله الله إلا إذا صدقت قبل ذلك بوجود الله وبانه يجوز أن ينزل كتابا ويرسل رسولا

وقالوا كذلك: إن أول واجب يلزم المكلف أن يأتي به هو النظر والفكر لتحصيل الاعتقاد بالله لينتقل منه الى تحصيل الايمان بالرسل وما أنزل عليهم من الكتاب والحكمة

وأما الدعوة الثانية فهي التي يحتج فيها الاسلام بخارق العادة وما أدراك ما هو خارق العادة الذي يعتمد عليه الاسلام، في دعوته الى التصديق برسالة النبي عليه السلام؟ هذا الخارق للعادة هو الذي تواتر خبره، ولم ينقطع أثره، هذا هو الدليل وحده وما عداه مما ورد في الاخبار سواء صح سندها أو اشتهر أو ضعف أو وهى فليس مما يوجب القطع عند المسلمين. فاذا أورد في مقام

(١) أي لا يؤخذ منها بالتسليم ابتداء ويجعل حجة على الخصم بناء على أنه من الله، ولا ينافي هذا انه يؤخذ منها باعتبار ما يقيمون من البرهان على ذلك، لا بمجرد التسليم ولا باعتبار انهم رسل الله، ثم بعد الايمان بالله وبهم يكمل ايمان المؤمن بالاخذ عنهم، وهذا الكلام ساقه الاستاذ الامام في مقام دعوة الاسلام وطريقة الاقناع به، لا في تقرير عقائده لاهله في تربية أولادهم وتعليمهم ـ فهذا يؤخذ من القرآن والسنة مباشرة، ثم يوضح بالادلة العقلية والعلمية ولا سيما المأثورة. والجري فيه على اسلوب محاجة المنكرين في الدعوة اليه مضر بتلاميذ المدارس والعوام

الحق لغير الانبياء عليهم الصلاة والسلام ، ولم ترد فيه كلمة واحدة تشير الى ان الداعين اليه يمكنهم أن يغيروا شيئا من سنة الله في الخليقة ، ولا حاجة الى بيان ذلك فهو اشهر من ان يحتاج الى تعريف

الاصل الاول للاسلام

النظر العقلي لتحصيل الايمان (١)

فأول أساس وضع عليه الاسلام هو النظر العقلي . والنظر عنده هو وسيلة الايمان الصحيح ، فقد اقامك منه على سبيل الحجة وقاضاك الى العقل ، ومن قاضاك الى حاكم فقد أذعن الى سلطته ، فكيف يمكنه بعد ذلك ان يجور أو يثور عليه ؟

بلغ هذا الاصل بالمسلمين أن قال قائلون من أهل السنة : ان الذي يستقصي جهده في الوصول الى الحق ثم لم يصل اليه ومات طالبا غير واقف عند الظن فهو ناج . فاي سعة لاينظر اليها الحرج أكمل من هذه السعة ؟

« ١ » هذا الاصل وما بعده ضد الاصل الرابع من اصول النصرانية —راجع ص٢٦—

وهذا الخارق قد دعي الناس الى النظر فيه بعقولهم، وطولبوا بان يأتوا في نظرهم على آخر ماتنتهي اليه قوتهم ، فان وجدوا طريقا لابطال اعجازه او كونه لايصلح دليلا على المدعى فعليهم أن يأتوا به . قال تعالى (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله) وقال (أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيراً) وقال غير ذلك مما هو مطالبة بمقاومة الحجة، ولم يطالبهم بمجرد التسليم على رغم من العقل

معجزة القرآن جامعة من القول والعلم ، وكل منهما مما يتناوله العقل بالفهم ، فهي معجزة عرضت على العقل وعرفته القاضي فيها، وأطلقت له حق النظر في احنائها ، ونشر ماانطوى في أثنائها ، وله منها حظه الذي لاينتقص . فهي معجزة أعجزت كل طوق ان يأتي بمثلها ، ولكنها دعت كل قدرة ان تتناول ماتشاء منها ، أما معجزة موت حي بلا سبب معروف للموت، أوحياة ميت، أواخراج شيطان من جسم، أو شفاء علة من بدن، فهي مما ينقطع عنده العقل ويجمد لديه الفهم ، وانما يأتي بها الله على يد رسله لاسكات أقوام غابهم الوهم ، ولم يضيء عقولهم نور العلم ، وهكذا يقيم الله بقدرته من الآيات للامم على حسب الاستعدادات (١)

ثم ان الاسلام لم يتخذ من خوارق العادات دليلا على ان

(١) راجع الصفحة ٣٧١ من مجلد المنار الرابع وانظر الكلام في الآيات الكونية والآيات النفسية العلمية

صلى الله عليه وسلم مهدت بين يدي العقل كل سبيل ، وأزيلت من سبيله جميع العقبات، واتسع له المجال الى غير حد، فماذا عساه يبلغ نظر الفيلسوف حتى يذهب الى ماهو أبعد من هذا؟ وأي فضاء يسع اهل النظر وطلاب العلوم ان لم يسعهم هذا الفضاء؟ ان لم يكن في هذا متسع لهم فلا وسعتهم أرض بجبالها ووهادها ولا سماء باجرامها وابعادها

أصل ثالث

(من اصول الاحكام في الاسلام: البعد عن التكفير)

هلا ذهبت من هذين الاصلين الى ما اشتهر بين المسلمين وعرف من قواعد احكام دينهم وهو اذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مائة وجه ويحتمل الايمان من وجه واحد حمل على الايمان ، ولا يجوز حمله على الكفر ، فهل رأيت تسامحا مع أقوال الفلاسفة والحكماء أوسع من هذا ؟ وهل يليق بالحكيم أن يكون من الحمق بحيث يقول قولا لا يحتمل الايمان من وجه واحد من مائة وجه ؟ اذا بلغ به الحمق هذا المبلغ كان الاجدر به ان يذوق حكم محكمة التفتيش البابوية ويؤخذ بيديه ورجليه فيلقى في النار

أصل رابع في الاسلام

(الاعتبار بسنن الله في الخلق)[1]

يتبع ذلك الاصل الاول في الاعتبار — وهو ان لا يعول

(١) هذا الاصل ضد الاصل الاول للنصرانية « راجع ٢٢ »

(الاصل الثاني للاسلام)

(تقديم العقل على ظاهر الشرع عند التعارض)

أسرع اليك بذكر اصل يتبع هذا الاصل المتقدم قبل أن أنتقل الى غيره : اتفق أهل الملة الاسلامية الا قليلا ممن لا ينظر اليه على انه اذا تعارض العقل والنقل(١) أخذ بما دل عليه العقل، وبقي في النقل طريقان طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه، وتفويض الامر الى الله في علمه، والطريق الثانية تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة(٢) حتى يتفق معناه مع ما أثبته العقل.

وبهذا الاصل الذي قام على الكتاب وصحيح السنه وعمل النبي

---

(١) يعني اذا تعارض الدليل العقلي القطعي مع ظاهر النقل غير القطعي الرواية والدلالة — كما صرح به في العنوان — يؤخذ بالدليل العقلي القطعي الخ وخرج بالقطعي النظريات العقلية غير القطعية كأكثر نظريات الفلاسفة والمتكلمين فهذه لا تقدم على ظاهر النقل الصحيح وان لم يكن قطعي الدلالة (فان قيل) وما تقولون في تعارض الدليلين القطعيين من العقل والشرع ؟ وأيهما تقدمون؟ قلنا كما قال شيخ الاسلام ابن تيمية (رح) ان القطعيين لا يتعارضان وان صحيح المنقول في الاسلام موافق دائما لصريح المعقول، ففرض التعارض بينهما باطل

(٢) خرج بهذا القيد تاويلات الباطنية وغلاة الصوفية وامثالهم والتاويل طريق الخلف، والتفويض طريق السلف، ولكن لا كما قال الاستاذ بل مذهبهم امرار النصوص على ظاهرها بلا تعطيل ولا تمثيل ولا تاويل، فنقول استوى على العرش لا كاستوائنا كما ان علمه ليس كعلمنا وكذا قدرته الخ

الناظر وفكر ، وكشف وقرر ، وأنى لنا بإحكام تلك السنن ، فهو يجري مع طبيعة الدين ، وطبيعة الدين لاتتجافى عنه، ولا تنفر منه، فلم لا يعظم تسامحها معه؟

جاء الاسلام لمحو الوثنية عربية كانت او يونانية أو رومانية أو غيرها، في أي لباس وجدت ، وفي أي صورة ظهرت ، وتحت أي اسم عرفت ، ولكن كتابه عربي والعربية لغة أولئك الوثنيين أعدائه الاقربين . وفهم معناه موقوف على معرفة أوضاع اللسان ولا تعرف اوضاعه حتى تعرف مواضع استعمال كلمه وأساليبه ، ولن يكون ذلك الا بحفظ مانطق به العرب من منظوم ومنثور، وفيه من آدابهم وعاداتهم واعتقاداتهم ما يعيد عند الناظر في كلامهم صورة كاملة من جاهليتهم ، وما فيها من الوثنية وأطوارها . هكذا صنع المسلمون الاولون — ركبوا الاسفار ، وانفقوا الاعمار ، وبذلوا الدرهم والدينار ، في جمع كلام العرب وحفظه وتدوينه وتفسيره ، توسلا بذلك الى فهم كتابهم المنزل فكانوا يعدون ذلك ضربا من ضروب العبادة ، يرجون من الله فيه حسن المثوبة ، فكان من طبيعة الدين أن لا يحتقر العلم الذي ولد هو فيه . بل قد يكون من الدين علم ماليس منه (١) متى حسنت النية في تناوله . وهذا

---

(١) اي قد يعد الاسلام من الدين الذي يتقرب به الى الله — الاشتغال بعلم غير ديني بنية صالحة كنفع الناس به

بعد الانبياء في الدعوة الى الحق على غير الدليل ، وان لاينظر الى العجائب والغرائب وخوارق العادات — اصل آخر وضع لتقويم ملكات الانفس القائمة على طريق الاسلام واصلاح اعمالها في معاشها ومعادها ـ ذلك هو اصل العبرة بسنة الله فيمن مضى ومن حضر من البشر وفي آثار سيرهم فيهم . فما جاء في الكتاب العزيز مقررا لهذا الاصل (قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين — سنة من قد ارسلنا قبلك من رسلنا ولن تجد لسنتنا تحويلا — فهل ينظرون إلا سنة الاولين فلن تجد لسنة الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا)—(أو لم يسيروا في الارض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم) الخ

في هذا يصرح الكتاب ان لله في الامم والاكوان سننا لاتتبدل ، والسنن الطرائق الثابتة التي تجري عليها الشؤون وعلى حسبها تكون الآثار ، وهي التي تسمى شرائع أو نواميس ، ويعبر عنها قوم بالقوانين . مالنا ولاختلاف العبارات ؟ الذي ينادي به الكتاب ان نظام الجمعية البشرية وما يحدث فيها هو نظام واحد لايتغير ولا يتبدل ، وعلى من يطلب السعادة في هذا الاجتماع ان ينظر في أصول هذا النظام حتى يرد اليها اعماله ويبني عليها سيرته وما يأخذ به نفسه . فان غفل عن ذلك غافل فلا ينتظرن الا الشقاء ، وان ارتفع الى الصالحين نسبه ، أو اتصل بالمقربين سببه . فمهما بحث

عنه كل رق الا العبودية لله وحده ، وليس لمسلم ـ مهما علا كعبه في الاسلام ـ على آخر ـ مهما انحطت منزلته فيه ـ الا حق النصيحة والارشاد . قال تعالى في وصف المفلحين : (وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر) وقال (ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) وقال (فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم اذا رجعوا اليهم لعلهم يحذرون) فالمسلمون يتناصحون ثم هم يقيمون أمة تدعو الى الخير ـ وهم المراقبون عليها ـ يردونها الى السبيل السوي اذا انحرفت عنه . وتلك الامة ليس لها عليهم الا الدعوة والتذكير والانذار والتحذير ، ولا يجوز لها ولا لاحد من الناس أن يتتبع عورة أحد . ولا يسوغ لقوي ولا لضعيف أن يتجسس على عقيدة أحد وليس يجب على مسلم أن يأخذ عقيدته أو يتلقى أصول مايعمل به عن أحد الا عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

لكل مسلم ان يفهم عن الله من كتاب الله وعن رسوله من كلام رسوله، بدون توسيط احد من سلف ولا خلف(١) وانما يجب عليه

(١) يعني لا يجب على المسلم أن يجعل احداً من علماء السلف أو الخلف واسطة بينه وبين الله ورسوله يتقيد برأيه واجتهاده في فهم كتاب الله أو سنة رسوله . وأما معرفة ما كان عليه سلف الامة في عصر النبي (ص) فقد صرح الاستاذ بوجوبه بعد ثلاثة اسطر

باب من التسامح لا يقدر سعته الا أهل العلم به وأما المسيحيون الاولون فقد هجروا لسان المسيح عليه السلام سريانيا كان أو عبرانية (أو آراميا) وكتبوا الاناجيل باللغة اليونانية ولم يكتب في العبرية إلا انجيل متى فيما يقال . ألا ترى ان اسم الانجيل نفسه يوناني ؟ كل ذلك كراهة لليهود الذين كان ينطق المسيح بلسانهم ويعظهم بلغتهم وتحرجا من النظر في دواوين آدابهم ، وما توارثوا من عاداتهم

الاصل الخامس للاسلام

قلب السلطة الدينية (١)

أصل من اصول الاسلام أنتقل اليه — وما أجله من أصل — قلب السلطة الدينية والاتيان عليها من أساسها

هدم الاسلام بناء تلك السلطة ومحا أثرها حتى لم يبق لها عند الجمهور من أهله اسم ولا رسم. لم يدع الاسلام لاحد بعد الله ورسوله سلطانا على عقيدة احد ولا سيطرة على إيمانه على ان الرسول عليه السلام كان مبلغاً ومذكراً لا مهيمنا ولا مسيطراً ، قال الله تعالى (فذكر إنما أنت مذكر * لست عليهم بمسيطر) ولم يجعل لاحد من أهله أن يحل ولا أن يربط لا في الارض ولا في السماء . بل الايمان يعتق المؤمن من كل رقيب عليه فيما بينه و بين الله سوى الله وحده ، ويرفع

(١) هذا الاصل ضد الاصل الثاني من أصول النصرانية راجع صحيفة ٢٣

ذكره - بحيث يتيسر له أن يفهم من الكتاب والسنة مايحتاج اليه من الاحكام ، حتى يتمكن بنفسه من التمييز بين الحق والباطل ، والصحيح والفاسد ، ويسهل عليه إقامة العدل الذي يطالبه به الدين والامة معاً

هو — على هذا — لايخصه الدين في فهم الكتاب والعلم بالاحكام بمزية ، ولا يرتفع به الى منزلة ، بل هو وسائر طلاب الفهم سواء ، إنما يتفاضلون بصفاء العقل ، و كثرة الاصابة في الحكم(١) ثم هو مطاع مادام على المحجة ونهج الكتاب والسنة والمسلمون له بالمرصاد ، فاذا انحرف عن النهج أقاموه عليه واذا اعوج قوموه بالنصيحة والاعذار اليه (٢) «لاطاعة لمخلوق في معصية الخالق»(٣) فاذا فارق الكتاب والسنة في عمله وجب عليهم ان يستبدلوا به غيره مالم يكن في استبداله مفسدة تفوق المصلحة فيه (٤) .

---

(١) من شواهد ذلك ارتفاع قدر العلماء على الخلفاء الذين قصروا عنهم في الفهم والعلم، ألم يأتك نبأ الامام مالك مع الخليفة هرون الرشيد رحمهما الله ؟ وكيف أنزل الامام الخليفة عن المنصة وأقعده مع العامة عند إلقاء الدرس، لانه في رتبة المستفيد (٢) من شواهد ذلك: قول الخليفة الاول رضي الله عنه في خطبته «وان زغت فقوموني» راجع ص ٧٣٤ من مجلد المنار الرابع (٣) حديث رواه البخاري ومسلم وغيرهما راجع ص ٣٢ من مجلد المنار الرابع (٤) مثال ذلك أن يكون له عصبية أقوى من الامة يخشى أن يبيدها بها . ودرء المفاسد مقدم على جلب المصالح

قبل ذلك ان يحصل من وسائله مايؤهله للفهم ، كقواعد اللغة العربية وآدابها واساليبها واحوال العرب خاصة في زمان البعثة وما كان الناس عليه زمن النبي ﷺ وما وقع من الحوادث وقت نزول الوحي ، وشيء من الناسخ والمنسوخ من الآثار . فان لم تسمح له حاله بالوصول الى مابعده لفهم الصواب من السنة والكتاب فليس عليه الا ان يسأل العارفين بهما وله بل عليه ان يطالب المجيب بالدليل على ما يجيب به سواء كان السؤال في أمر الاعتقاد اوفي حكم عمل من الاعمال فليس في الاسلام مايسمى عند قوم بالسلطة الدينية بوجه من الوجوه

السلطان في الاسلام

لكن الاسلام دين وشرع ، فقد وضع حدوداً ، ورسم حقوقاً وليس كل معتقد في ظاهر أمره بحكم يجري عليه في عمله . فقد يغلب الهوى . وتتحكم الشهوة . فيغمط الحق . ويتعدى المعتدي الحد . فلا تكمل الحكمة من تشريع الاحكام الا اذا وجدت قوة لاقامة الحدود وتنفيذ حكم القاضي بالحق . وصون نظام الجماعة . وتلك القوة لايجوز أن تكون فوضى في عدد كثير فلا بد أن تكون في واحد وهو السلطان أو الخليفة

الخليفة عند المسلمين ليس بالمعصوم . ولا هو مهبط الوحي . ولا من حقه الاستئثار بتفسير الكتاب والسنة . نعم شرط فيه أن يكون مجتهداً أي أن يكون من العلم باللغة العربية وما معها — مما تقدم

المدنية حق التشريع في معاملات الناس بعضهم لبعض ، وحق السيطرة على مايحفظ نظام اجتماعهم ، في معاشهم لا في معادهم ، وعدوا هذا الفصل منبعاً للخير الاعم عندهم (١)

ثم هم يهمون فيما يرمون به الاسلام من أنه يحتم قرن السلطتين في شخص واحد . ويظنون أن معنى ذلك في رأي المسلم أن السلطان هو مقرر الدين ، وهو واضع أحكامه وهو منفذها ، والايمان آلة في يده يتصرف بها في القلوب بالاخضاع ، وفي العقول بالاقناع ، وما العقل والوجدان عنده الامتاع ، ويبنون على ذلك أن المسلم مستعبد لسلطانه بدينه وقد عهدوا أن سلطان الدين عندهم كان يحارب العلم ، ويحمي حقيقة الجهل ، فلا يتيسر للدين الاسلامي أن يأخذ بالتسامح مع العلم مادام من أصوله أن إقامة السلطان واجبة بمقتضى الدين . وقد تبين لك أن هذا كله خطأ محض وبعد عن فهم معنى ذلك الاصل من أصول الاسلام . وعلمت أن ليس في الاسلام سلطة دينية سوى

(١) ان البروتستانت الذين ابتدعوا هذا الفصل اعطوا ملوكهم حق حماية الايمان ورياسة الكنيسة كالانجليز والالمان ، ويتوجونهم تتويجاً دينيا ، وقد اعترفت ايطاليا أخيراً للبابا بدولته السياسية المدنية ومملكة الفاتيكان التي يدعيها ، والاشراف على التعليم الديني في مدارسها ، ولكن بدون ما كان لسلفه الاولين . فازدادت هذه الدولة بهذا التدين قسوة ووحشية في حربها لمسلمي برقة وطرابلس من إبادة واستئصال وهتك اعراض بما اعاد الحرب الصليبية سيرتها الاولى

فالامة أو نائب الامة هو الذي ينصبه والامة هي صاحبة الحق في السيطرة عليه وهي التي تخلعه متى رأت ذلك من مصلحتها فهو حاكم مدني من جميع الوجوه(١)

ولا يجوز لصحيح النظر أن يخلط الخليفة عند المسلمين بما يسميه الافرنج (تيوكراتيك) أي سلطان إلهي فان ذلك عندهم هو الذي ينفرد بتلقي الشريعة عن الله وله حق الاثرة بالتشريع وله في رقاب الناس حق الطاعة ، لابالبيعة ، وما تقتضيه من العدل وحماية الحوزة بل بمقتضى الايمان فليس للمؤمن مادام مؤمنا أن يخالفه ، وان اعتقد أنه عدو لدين الله ، وشهدت عيناه من أعماله مالا ينطبق على مايعرفه من شرائعه ، لان عمل صاحب السلطان الديني وقوله في أي مظهر ظهرا هما دين وشرع ، .هكذا كانت سلطة الكنيسة في القرون الوسطى . ولا تزال الكنيسة تدعي الحق في هذه السلطة كما سبقت الاشارة اليه

كان من أعمال التمدن الحديث الفصل بين السلطة الدينية والسلطة المدنية فترك للكنيسة حق السيطرة على الاعتقاد والاعمال فيما هو من معاملة العبد لربه : تشرع وتنسخ ماتشاء ، وتراقب وتحاسب كما تشاء ، وتحرم وتعطي كما تريد،وخول السلطة

(١) قد فصلنا هذه الاحكام ومباحثها في (كتاب الخلافة أو الامامة العظمى)

الاصل السادس للاسلام

(حماية الدعوة لمنع الفتنة)

قالوا ان الدين الاسلامي دين جهادي شرع فيه القتال ولم يكن شرع في الدين المسيحي، ففي طبيعة الدين روح الشدة على من يخالفه، وليس فيها ذلك الصبر والاحتمال اللذان تقضي بهما شريعة المسالمة، وهي الشريعة التي وردت في كثير من الوصايا المسيحية «من ضربك على خدك الايمن فادر له خدك الآخر، من سخرك ميلا فسر معه ميلين» (متى ٥ : ٣٩ و ٤٠) ونحو ذلك، حتى لقد طلبت فيها محبة العدو وهي مما لا يدخل تحت الاختيار بل ولا محبة الصديق. وانما الاختياري العدل بين الاعداء والاولياء. لكن في ملكوت الله كل شيء مستطاع ولا شيء فيه بمستحيل.

قلنا : لكن انظروا هل دفع الشر بالشر عند القدرة عليه وعند عدم التمكن من سواه خاص بالدين الاسلامي أو هو في طبيعة كل قادر يعذر إلى خصمه ؟ ليس القتل في طبيعة الاسلام بل في طبيعته العفو والمسامحة : (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) ولكن القتال فيه لرد اعتداء المعتدين على الحق وأهله إلى أن يأمن شرهم، ويضمن السلامة من غوائلهم، ولم يكن ذلك للاكراه على الدين ولا للانتقام من مخالفيه، ولهذا لا تسمع في تاريخ الفتوح

سلطة الموعظة الحسنة ، والدعوة إلى الخير ، والتنفير عن الشر، وهي سلطة خولها الله لادنى المسلمين يقرع بهـا أنف أعلاهم ، كما خولها لاعلاهم يتناول بها من أدناهم ، ومن هنا تعلم « الجامعة » أن مسألة السلطان في دين الاسلام ليست مما يضيق به صدره ، ويحرج به نفسه عن احتمال العلم. وقد تقدم مايشير إلى ماصنع الخلفاء العباسيون والامويون الاندلسيون من صنائع المعروف مع العلم والعلماء . وربما أتينا على شيء آخر منه فيما بعد

يقولون : ان لم يكن للخليفة ذلك السلطان الديني أفلا يكون للقاضي أو للمفتي أو شيخ الاسلام ؟ وأقول : إن الاسلام لم يجعل لهؤلاء أدنى سلطة على العقائد وتقرير الاحكام، وكل سلطة تناولها واحد من هؤلاء فهي سلطة مدنية قررها الشرع الاسلامي ، ولا يسوغ لواحد منهم أن يدعي حق السيطرة على إيمان أحد أو عبادته لربه، أو ينازعه في طريق نظره (١)

---

١) وظيفة القاضي معروفة وهي الفصل فى الخصومات التي ترفع اليه ، ووظيفة المفتي بيان المسائل التى يسئل عنها، ولكل عالم أن يرد عليه اذا اخطأ . ولقب شيخ الاسلام كان يطلقه العلماء على بعض المتازين فى العلوم، وأطلقته الدولة العثمانية على مفتيها الرسمي وجعلت له حق اختيار قضاة الشرع والمفتين بمقتضى قانون.

مقابلة بين الاسلام الحربي

والمسيحية السلمية

الاسلام الحربي كان يكتفي من الفتح بادخال الارض المفتوحة تحت سلطانه ثم يترك الناس وما كانوا عليه من الدين يؤدون مايجب عليهم في اعتقادهم كما شاء ذلك الاعتقاد، وانما يكلفهم بجزية يدفعونها تكون عونا على صيانتهم والمحافظة على أمنهم في ديارهم ، وهم في عقائدهم ومعابدهم وعاداتهم بعد ذلك أحرار لايضايقون في عمل ، ولا يضامون في معاملة خلفاء المسلمين كانوا يوصون قوادهم باحترام العباد الذين انقطعوا عن العامة في الصوامع والاديار لمجرد العبادة كما كانوا يوصونهم باحترام دماء النساء والاطفال، وكل من لم يعن على القتال . جاءت السنة المتواترة بالنهي عن ايذاء أهل الذمة وبتقرير مالهم من الحقوق على المسلمين « لهم مالنا وعليهم ماعلينا » (١) و « من آذى ذميا فليس منا » (٢) واستمر العمل على ذلك ما استمرت

(١) هذه هي القاعدة التي جرى عليها العمل في الاسلام

(٢) ورد بهذا المعنى احاديث في الصحاح والسنن وايذاء الذمي والمعاهد محرم بالاجماع وروى الخطيب من حديث ابن مسعود «من آذى ذميا فانا خصمه ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة» وفي اسناده علة

الاسلامية ماتسمعه في الحروب المسيحية ، عند مااقتدر أصحاب «شريعة المسالمة» على محاربة غيرهم من قتل الشيوخ والنساء والاطفال (١)

لم تقع حرب اسلامية بقصد الابادة كما وقع كثير من الحروب بهذا القصد بأيدي المسيحيين . وانما كان الصبر والمسالمة دينا عند ما كانت القدرة والقوة تعوزان الدين . وغاية مايقال ان العناية الالهية منحت الاسلام في الزمن القصير من القوة على مدافعة أعدائه مالم تمنحه لغيره في الزمن الطويل . فتيسر له في شبيبته مالم يتيسر لغيره الا في كهولته او شيخوخته

---

١) حدث في الحرب الاوربية الكبرى بعد وفاة الكاتب رحمه الله من مثل هذا مالم يسبق له نظير في شدته ، وجاءت الاخبار في اثناء هذه الطبعة للكتاب ان جيش ايطالية الذي يقاتل العرب في بلاد السنوسيين من المغرب يقترف من هذه الفظائع ماتقشعر منه الجلود ، ومنه انهم يحملون العرب في الطيارات الى بعد شاسع ويلقونهم منها على الارض ... مع مايفعلون بالنساء ...

و الاسلام يقول كتابه في شأن الوالدين المشركين: (وان جاهداك على أن تشرك بي ماليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفا واتبع سبيل من أناب الي) فهو في اشتداده على المهدين لامته لا يقضي بالفرقة بين أب وابن ولا بين أم وبنت، بل يأمر الاولاد المؤمنين أن يصحبوا الوالدين المشركين بالمعروف في الدنيا مع محافظتهم على دينهم

فأنت ترى الاسلام من جهة يكتفي من الامم والطوائف التي يغلب على أرضها بشيء من المال أقل مما كانوا يؤدونه من قبل تغلبه عليهم، وبأن يعيشوا في هدوء لا يمكرون معه صفو الدولة ولا يخلون بنظام السلطة العامة . ثم يرخي لهم بعد ذلك عنان الاختيار في شؤونهم

= أخرى لم تعرفها انت ولا آباؤك من آلهة الشعوب القريبين منك أو البعيدين عنك من اقصاء الارض الى اقصائها فلا ترض منه ولا تسمع له ولا تشفق عينك عليه ولا ترق له ولا تستره بل قتلا تقتله. الخ)

وفي سفر التثنية ايضا (٢٠: ١٠ — ١٦) ما نصه (حين تقرب من مدينة لتحاربها ادعها الي الصلح فان اجابتك الى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك، وان لم تسالمك بل عملت معك حربا فحاصرها، واذا دفعها الرب الهك الي يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والاطفال والبهائم وكل ما في المدينة كلها غنيمتها فتغتنمها لنفسك، وتاكل غنيمة اعدائك الذي اعطاك الرب الهك، وهكذا تفعل بجميع المدن البعيدة جداً منك التي ليست من هؤلاء الامم هنا، واما مدن هؤلاء الشعوب التي يعطيك الرب الهك نصيبا فلا تستبق منهم نسمة ما)

قوة الاسلام . ولست أبالي اذا انحرف بعض المسلمين عن هذه الاحكام ، عند مابدأ الضعف في الاسلام ، — وضيق الصدر من طبع الضعيف — فذلك مما لا يلصق بطبيعته ، ويخالط بطينته

المسيحية السلمية كانت ترى لها حق القيام على كل دين يدخل تحت سلطانها تراقب أعمال أهله وتخصصهم دون الناس بضروب من المعاملة لا يحتملها الصبر مهما عظم . حتى اذا تمت لها القدرة على طردهم ، بعد العجز عن إخراجهم من دينهم وتعميدهم ، أجلتهم عن ديارهم ، وغسلت الديار من آثارهم ، كما حصل ويحصل في كل أرض استولت عليها أمة مسيحية استيلاء حقيقيا

لايمنع غير المسيحي من تعدي المسيحي الا كثرة العدد ، أو شدة العضد ، كما شاهد التاريخ وكما يشهد كاتبوه . ذلك كله لانه ما جاء ليلقي سلاما بل سيفا ، ولانه جاء ليفرق بين البنت وأمها والابن وأبيه(١)

(١) هذا نص انجيل متى في هذا . ومثله قول انجيل لوقا ١٤ — ٢٥ و ٢٦ (وقال لهم (يسوع) ان كان احد ياتي الي ولا يبغض اباه وأمه وامرأته واولاده واخوته واخوانه حتى نفسه ايضا فلا يقدر ان يكون لي تلميذا) وفي الباب ١٩ من هذا الانجيل ما نصه (٢٧ اما اعدائي أولئك الذين لم يريدوا ان أملك عليهم فأتوا بهم الى هنا واذبحوهم قدامي) وأما اسفار التوراة فقد جاء فيها نحو ذلك في القسوة على الاهلين المخالفين وعلى سائر المحاربين . قال في ١٣ : ٩ من سفر تثنية الاشتراع (واذا غواك سرا اخوك ابن امك أو ابنك أو ابنتك أو امرأة حضنك أو صاحبك الذي مثل نفسك قائلا : نذهب ونعبد آلهة =

الاصل السابع للاسلام

مودة المخالفين في العقيدة(١)

المصاهرة

أباح الاسلام للمسلم أن يتزوج الكتابية ، نصرانية كانت أو يهودية، وجعل من حقوق الزوجة الكتابية على زوجها المسلم أن تتمتع بالبقاء على عقيدتها ، والقيام بفروض عبادتها ، والذهاب إلى كنيستها أو بيعتها، وهي منه بمنزلة البعض من الكل، وألزم له من الظل، وصاحبته في العز والذل، والترحال والحل، بهجة قلبه، وريحانة نفسه ، وأميرة بيته ، وأم بناته وبنيه، تتصرف فيهم كما تتصرف فيه

لم يفرق الدين في حقوق الزوجية، بين الزوجة المسلمة والزوجة الكتابية. ولم تخرج الزوجة الكتابية باختلافها في العقيدة مع زوجها من حكم قوله تعالى (ومن آياته أن جعل لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون) فلها حظها من المودة ، ونصيبها من الرحمة، وهي كما هي . وهو يسكن اليها كما تسكن اليه، وهو لباس لها كما انها لباس له. أين انت من صلة المصاهرة التي تحدث بين اقارب الزوج وأقارب الزوجه ومايكون بين الفريقين من الموالاة والمناصرة

١) هذا الاصل الاسلامي هو ضد الاصل السادس للنصرانية (راجع ٢٨)

الخاصة بهم، لا رقيب عليهم فيها إلا ضمائرهم. ومن جهة أخرى ينهى، أفراد المؤمنين عن مقاطعة ذوي قرباهم من المشركين ، ويطالبهم بحسن معاملتهم . ففي طبيعته ان يكل أمر الناس في سرائرهم الى ربهم، وفي طبيعته أن يجير من لا يعتقد عقيدته، ويحمي من لا يتبع سنته، وإن كان في عمى من الجهالة، وخبل من الضلالة

أفترى أنه يصعب عليه بعد ذلك أن يحتمل العلم والعلماء ، ويضيق به حلمه عن صنع الجميل بالفضل والفضلاء، ممن ينفق عمره في تقرير حقيقة، أو كشف غامض أو تبيين طريقة؟ كلا ثم كلا، فمن بحث ونقب، وسبر ونقر، أوشق الارض أو ارتقى إلى السماء ، فهو في أمن من أن يعرض الاسلام له في شيء من عمله، إلا ان يحدث تفننا ، أو يفسد ، أدبا ، فعند ذلك تمتد يد الملك لرد كيد الكائد ، وإصلاح الفاسد بسماح من الدين

الوفاء ، ولا يحيد عن شرائع الصدق في الولاء .

ماذا ترى في الزوجة الكتابية لو كانت من أهل النظر العقلي وذهبت مذهباً يخالف مذهب زوجها ؛ أفينقص ذلك من مودته لها ؟ أو يضعف من شعور الرحمة التي أفاضها الله بينه وبينها ؟ فاذا كان المسلم يتعود الاحتمال بل يتعود المحبة والنصرة لمن يخالفه في عقيدته ودينه وملته ، ويألف مخالطته وعشرته وولايته ونصرته . أنراه لا يحتمل أن يرى بجواره من يعمل نظره في نظام الخليقة ليصل منه إلى اكتشاف سر أو تقرير أصل في علم ، أو قاعدة لصناعة ؟ إن كان قد يخالف ظاهراً مما يعتقد ، أو يميل إلى رأي غير الذي يجد ؟ أفلا يسع هذا ما يسع المجاهر بالخلاف ، وهو معه على ما رأيت من الائتلاف . ؟

لو ذهبت أعد ما في طبيعة الاسلام من عناصر وأركان كلها تؤلف مزاج الكرم ، وتكوّن حقيقة المساحة مع العلم لأطلت على القاريء أكثر مما أطلت . ولهذا أرى من الواجب عليّ أن أختم القول بذكر أصل أشرت اليه ولا غنى لما نحن فيه عن ذكره ، ـ :

على ماعهد في طبيعة البشر؟ وما أجلى مايظهر من ذلك بين الاولاد وأخوالهم، وذوي القربى لوالدتهم، أيغيب عنك مايستحكم من ربط الالفة بين المسلم وغير المسلم بأمثال هذا التسامح، الذي لم يعهد عند من سبق ولا فيمن لحق من أهل الدينين السابقين عليه؟ (١) ولا يخفى على صحيح النظر أن تقرير التسامح على هذا الوجه في نشأة الدين مما يعود القلوب على الشعور بان الدين معاملة بين العبد وربه، والعقيدة طور من أطوار القلوب، يجب أن يكون أمرها بيد علام الغيوب، فهو الذي يحاسب عليها، وأما المخلوق فلا تطول يده اليها، وغاية مايكون من العارف بالحق أن ينبه الغافل، ويعلم الجاهل، وينصح الغاوي، ويرشد الضال. لايكفر في ذلك نعمة العشير، ولا يسلك به مسالك التعسير، ولا يقطع أمل النصير، ولا يخالف سنة

---

(١) يقول بعض النصارى اذا كان الاسلام أباح للمسلم أن يتزوج بالكتابية ليعلم البشر التآلف والتعاطف مع التباين في العقيدة والتخالف. فلماذا لم يسمح للكتابي أن يتزوج بالمسلمة لهذا الغرض؟ والجواب أن الرجال قوامون على النساء لانهم أقوى منهن، فليس من العدل ولا من الرحمة أن يسمح لقوي يفرق دينه بينه و بين زوجته الضعيفة و يامره ببغضها و بغض اولاده ووالده اذا خالفوا عقيدته أن يتزوج بامرأة مخالفة له وانما أباح الاسلام ذلك لمن يدين الله بما أمر به من العدل والرحمة، وتنفذ شريعته عليه ما فرضته عليه من حقوق الزوجة. وهو المسلم زد على ذلك ان الكتابي لا يبيح له دينه التزوج بالمسلمة الا جحودا لدينه يخرج به عن كونه كتابيا، او فسوقا عنه وايثارا الشهوته عليه

أو زيادته أو زادت المشقة فيه جاز تركه، بل قد يجب اذا غلب على الظن الضرر فيه.

الوضوء والغسل من شروط الصحة للصلاة إلا اذا خشي منه الضرر أو عرضت مشقة في تحصيل الماء .

القيام مما لا تصح الصلاة إلا به إلا اذا أصابت المصلي مشقة فيه فيسقط، ويصلي قاعداً .

السعي إلى الجمعة واجب إلا اذا كان وحل غزير أو مطر كثير او ما يوجب تعبا ومشقة فيسقط . وهكذا نجد القاعدة قد عمت «صحة الابدان ، مقدمة على صحة الاديان» فنرى الدين قد راعى في احكامه سلامة البدن كما اوجب العناية بسلامة الروح

﴿ الزينة والطيبات ﴾ أباح الاسلام لاهله التجمل بأنواع الزينة والتوسع في التمتع بالمشتهيات ، على شريطة القصد والاعتدال وحسن النية ، والوقوف عند الحدود الشرعية، والمحافظة على صفات الرجولية، جاء في الكتاب العزيز (يا بني آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا انه لا يحب المسرفين* قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة، كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون* قل انما حرم ربي الفواحش ماظهر منها وما بطن والاثم والبغي بغير الحق وان تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا وان تقولوا على الله مالا تعلمون) (سورة الاعراف)

الاصل الثامن للاسلام

(الجمع بين مصالح الدنيا والآخرة) (١)

﴿السمحة﴾ الحياة في الاسلام مقدمة على الدين . أوامر الحنيفية السمحة إن كانت تختطف العبد إلى ربه، وتملأ قلبه من رهبه، وتفعم أمله من رغبه، فهي مع ذلك لا تأخذه عن كسبه، ولا تحرمه من التمتع به، ولا توجب عليه تقشف الزهادة، ولا تجشمه في ترك اللذات ما فوق العادة

صاحب هذا الدين صلى الله عليه وسلم لم يقل « بع ما تملك واتبعني » ولكن قال لمن استشاره فيما يتصدق به من ماله « الثلث، والثلث كثير، انك إن تذر ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة يتكففون الناس » (٢)

﴿الرخص﴾ فرض الصوم على المؤمنين لكن اذا خشي منه المرض

(١) هذا الاصل ضد الاصل الثالث للنصرانية (راجع ص٢٤)

(٢) يشير الى حديث سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه، وقد رواه البخاري، ومسلم وأصحاب السنن الأربعة: كان سعد مريضا في حجة الوداع، فعاده النبي صلى الله عليه وسلم، وكان عازما على الصدقة بثلثي ماله وفي رواية بماله كله، فسأله النبي عما ترك لولده فقال هم أغنياء وفي رواية الجماعة، انه لم يكن له إلا بنت، وفي رواية احمد والنسائي، انه أمره أولا بان يتصدق بالعشر، والحاصل انه مازال يراجعه حتى رضي صلى الله عليه وسلم بالثلث وحرم الزيادة بالنص

فترى ان الاسلام لم يبخس الحواس حقها، كما انه هيأ الروح لبلوغ كمالها . فهو الذي جمع للانسان اجزاء حقيقته واعتبره حيوانا ناطقا لا جسمانيا صرفا ولا ملكوتيا بحتا ، جعله من اهل الدنيا كما هو من اهل الآخرة . واستبقاه من أهل هذا العالم الجسداني، كما دعاه الى ان يطلب مقامه الروحاني . أليس يكون بذلك وبما بينه في قوله (هو الذي خلق لكم ما في الارض جميعا) قد أطلق القيد عن قواه ، لتصل من رفه الحياة [مع القصد] إلى منتهاه ؟ والنفوس مطبوعة على التنافس قد غرز فيها حب التسابق فيما تعتقده خيراً أو تجده لذيذاً او تظنه نافعا

وليس في الغريزة الانسانية ان يقف بها الطلب عند حد محدود او ينتهي بها السعي إلى غاية لا مطلع للرغبة وراءها، بل خصها الله بالمكنة من الرقي في اطوار الكمال من جميع وجوهه إلى ما شاء الله أن ترقى بدون حد معروف

نتيجة

(جمع الاسلام بين مصالح الدين والدنيا)

فاذا جمع سائق الانفس ومزجيها ومرشدها وهاديها، بين شاحذين ، شاحذ التمتع بمتاع الحياة الدنيا، وشاحذ الرغبة في النعيم الدائم في الآخرة ، فقد جمع لها كل ما يسمو بها عن الرضاء في الدنيا بالدون

ثم عد الله النعيم والجمال والزينة من نعمه علينا التي يذكرنا بها فضله ، ويهيج بها نفوسنا لذكره وشكره ، كما قال (والانعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون * ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون * وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الانفس * ان ربكم لرءوف رحيم * والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لاتعلمون) ثم قال (وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون) سورة النحل

الاقتصاد

ووضع قانونا للانفاق وحفظ المال في قوله (ان المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفوراً * ولاتجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوما محسوراً) سورة الاسراء

النهي عن الغلو في الدين

وخشي على المؤمن ان يغلو في طلب الآخرة فيهلك دنياه وينسى نفسه منها فذكرنا بما قصه علينا ان الآخرة يمكن نيلها مع التمتع بنعم الله علينا في الدنيا إذ قال (وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا وأحسن كما احسن الله اليك ولا تبغ الفساد في الارض * ان الله لايحب المفسدين) سورة القصص

الله اذا توانى في ذلك وقد أرشده الله في كتابه وبسنة نبيه الى ان عالمه انما خلق لاجله ، وقد وضعه الله تحت تصرف عقله ، انظر الى لطف الاشارة في الآية المتقدمة «قل من حرم زينة الله » الخ حيث قال : (كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون) فأهل العلم هم الذين يعرفون مقدار نعم الله تعالى فيما يرفه به معيشتهم ، ويجمل به هيئتهم ، ويجلي به زينتهم

المسلمون مسوقون بنا بل من دينهم الى طلب ما يكسبهم الرفعة والسؤدد والعزة والمجد ، ولا يرضيهم من ذلك مادون الغاية ، ولا يتوفر شيء من وسائل ذلك الا بالعلم — فهم محفوزون أشد الحفز الى طلب العلم وتلمسه في كل مكان ، وتلقيه من أية شفة واي لسان فاذا لاقاهم العالم في اي سبيل ، او عثروا به في اي جيل ، او ظهر لهم من اي قبيل ، هشوا له وبشوا ، ونصبوا اليه وكمشوا (١) وشدوا به اواصرهم ، وعقدوا عليه خناصرهم ، ولا يبالون ما تكون عقيدته ، اذا نفعتهم حكمته « الحكمة ضالة المؤمن فحيث وجدها فهو أحق بها » (٢) ألم يأتهم عن ربهم : (يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت

---

(١) لعل نصبوا من نصب السير وهو أن يسير طول يومه سيرا لينا . وكمش الرجل كان سريعا ماضيا ، وكمش كانكمش شجع واسرع

(٢) حديث رواه الترمذي عن أبي هريرة ، ورواه غيره بالفاظ أخرى والمعنى واحد ، ومنه رواية موقوفة على ابن عمر رضى الله عنهما « خذ الحكمة ولا يضرك من أي وعاء خرجت » وفي رواية عن علي كرم الله وجهه « الحكمة ضالة المؤمن فخذ الحكمة ولو من اهل النفاق »

وفي الاخرة بعذاب الهون، فترى كل نفس تمضي مع إستعدادها بشهامة فؤادها مضاء الزميع(١) لا تخشى العثرة بالوعيد، ولا تقعد عن مطلبها قعدة الرعديد(٢) فتطالب منافعها من هذا الكون الذي وجدت فيه ووجد لها، فتسير في مناكب الارض ولا تكتفي عن الكل بالبعض، وتبحث في تربتها، ولا يقف بها ظاهرها عن باطنها، ولا يحجبها ظهرها عن مد يدها إلى مافي جوفها، ولا تجد مايصدها عن النظر في الهواء، والبحث في الماء، والاهتداء بنجوم السماء، بعد معرفة مواقعها وحركاتها في مداراتها واستقامتها، وانحرافها وظهورها وخنوسها، وبالجملة فكل مستعد لوجه من وجوه النظر أو الولوج في باب من أبواب العلم. ينطلق إلى حيث يبلغ به استعداده إما للنجاة من ضرورة وإما لاستتمام منفعة أو استكمال لذة لايجد من نواهي الدين مايصده عن مطالبه، ولامايكف يده عن تناول رغيبة أين هذا من ذلك الذي لا يرى الخلاص إلا في مجافاة هـذا العالم ولذائذه، ويجد ان الغنى والثروة من الحجب التي لاتخرق تحول بينه وبين ملكوت السموات

كيف يتسنى للمسلم أن يشكر الله حق شكره، اذا لم يضع العالم بأسره تحت نظر فكره لينفذ من ظاهره الى سره، ويقف على قوانينه وشرائعه، ويستخدم كل مايصلح لخدمته في توفير منافعه؟ كيف يشكر

«١» هو الحازم القوي العزيمة يزمع على الامر فيمضي فيه ولا ينثني والجيد الرأي المقدام (٢) الرعديد الجبان الكثير الارتعاد

فالحيوان يعرفها بله الانسان، وكلما عظم اختصاص القوة بالنوع عظمت لذته باستعمالها فيما وجهت له، فيمكنك أن تستنتج من ذلك أن لاشيء عند الانسان ألذ من كشف المجهول، واحراز المعقول وقد سمح الاسلام للمسلم أن يتمتع في هذه الحياة الدنيا بما يلذ له مع القصد والاعتدال . أفلا يكون من لذائذه ومتممات نعيمه أن يسيح في مملكة العلم ليمتع عقله ، كما يسيح في بسيط الارض ليكسب رزقه ويقيت أهله؟ على أن العلم كان من ضروريات معيشة المسلم أو حاجياتها كما ذكرنا فذا طفق يستنبط ماءه للضرورة ، ويستجلي سناءه للحاجة ، فلا يلبث أن يصير هو حاجة نفسه، وشاغله عن حاجات جسمه حتى يدخل معه في رمسه ، كما وقع لكثير من المسلمين . قال إمام جليل من أئمتهم « طلبنا العلم لغير الله فأبى أن يكون إلا لله »

نتائج هذه الاصول

(وآثارها في المسلمين)

الى م أفضت طبيعة الاسلام بالمسلمين ؟ وماذا كان أثرها في أسلافهم الاولين ؟ — فتح عمرو بن العاص رضي الله عنه مصر واستولى بجيشه على الاسكندرية بعد لحاق النبي صلى الله تعالى عليه وآله وسلم بالرفيق الأعلى بست سنوات في رواية، وتسع سنوات في رواية أخرى ، والاسلام في طلوع فجره وتفتح نوره . فكان من

الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولو الالباب) ألم يسمعوا في وصفهم قوله : (الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه).

ذلك شأن المسلم مع العلم إذا كان مسلما حقا، وذلك ما تنجر اليه طبيعة دينه ، وحديث «اطلبوا العلم ولو بالصين » (١) ان كان في سند لفظه إلى النبي ﷺ مقال فسند معناه متواتر فانه سند القرآن نفسه، فان الله يفضل العلم وأهل العلم بدون قيد ولا تخصيص، فالمسلم مطالب بطلب العلم ولو في الصين ولو لم يكن في الصين مسلم على عهد النبي ﷺ.

لاشيء ينقلب عند النفس الانسانية لذة بنفسه، وان كان في أول أمره مطلوبا لغيره ، مثل العلم ، تطلب العلم أولا لحاجتك اليه في تقويم معيشة ، أو ترفيه حال أو دفاع عن نفس وملة، ثم لا تلبث اذا أوغلت فيه أن تجد اللذة في العلم نفسه ، فتصير اللذة بتحصيله والوصول الى دقائقه غاية تقصد بنفسها وتضمحل فيها كل غاية سواها ، وعلة ذلك ظاهرة فان العلم مسرح نظر العقل ، والعقل قوة من أفضل القوى الانسانية ، بل هي أفضلها على الحقيقة ، وقد وضع لها العليم الحكيم لذة، كما منح لكل قوة سواها نعيما ولذة ، ولست في حاجة الى تعديد لذة البصر أو السمع أو الشم أو الذوق أو اللمس،

« ١ » رواه ابن عدي في الكامل والبيهقي في شعب الايمان والمدخل وابن عبد البر في العلم والخطيب في الرحلة والديلمي في مسند الفردوس وغيرهم وله طرق كثيرة يقوي بعضها بعضا

اشتغال المسلمين

بالعلوم الادبية ثم العقلية

بعد ٢٠ سنة من وفاته عليه الصلاة والسلام اخذ الخليفة علي ابن ابي طالب كرم الله وجهه يحض على تعليم الآداب العربية ويطلب وضع القواعد لها لما رأى من حاجة الناس إلى ذلك، وأخذ المسلمون يتحسسون نور العلم في ظلام تلك الفتن استرسالا مع ما يدعوهم اليه دينهم، وتنبيههم لطلبه شريعتهم، وإن كانت الحروب الداخلية التي اشتعلت نارها في اطراف بلادهم للنزاع في امر الخلافة قد شغلتهم عن كل شيء من مصالحهم، فانها لم تشغلهم عن تلمس العلوم والتناول منها بالتدريج على سنة الفطرة، فالبراعة في الآداب: من علم بوقائع العرب وتاريخهم، وقول الشعر، وإنشاء البليغ من النثر، قد بلغت في خلافة بني امية مبلغا لم تبلغه امة قط في مثل مدتها، وكان الخلفاء الامويون يعلون منزلتها، ويرفعون مكانات الشعراء والخطباء والعلماء بالسير، ثم ظهرت آثار العلوم العقلية في آخر دولتهم، وترجمت جملة من الكتب العقلية والصناعية قبل نهاية القرن الاول

نقل الخلفاء الامويون دار الخلافة من المدينة إلى الشام ولم يسيروا في الزهد سيرة الخلفاء الراشدين، فقد جاء رسول من الفرس

بقايا ماتركت الازمان الاولى رجل مسيحي من اليعقوبيين اسمه يوحنا النحوي ، كان في بدء أمره ملاحا يعبر الناس بسفينته وكان يميل الى العلم بطبيعته ، فاذا ركب معه بعض أهل العلم أصغى إلى مذاكرتهم ثم اشتد به الشوق فترك الملاحة واشتغل بالعلم وهو ابن ٤٠ سنة فبلغ فيه مالم يبلغه الناشئون فيه من طفوليتهم ، وقد أحسن من العلم فنونا كثيرة حتى عد من فلاسفة وقته وأطبائه ومناطقته

يقول كثير من مؤرخي الغربيين ومؤرخي المسلمين : ان عمرو ابن العاص سمع به فاستدناه منه وأكرمه لعلمه ، ووقعت بينهما محبة ظهر امرها واشتهر حتى قال احد فلاسفة الغربيين [ان المحبة التي نشأت بين عمرو بن العاص فاتح مصر ويوحنا النحوي ترينا مبلغ ما يسمو اليه العقل العربي من الافكار الحرة والرأي العالي: بمجرد ما أعتق من الوثنية الجاهلية ودخل في التوحيد المحمدي أصبح على غاية من الاستعداد للجولان في ميادين العلوم الفلسفية والادبية من كل نوع]

خالط المسلمون اهل فارس وسورية وسواد العراق وأدخلوهم في اعمالهم ولم يمنعهم الدين عن استعمالهم حتى كانت دفاترهم بالرومية في سورية ولم تغير بالعربية إلا بعد عشرات من السنين فاحتكت الافكار بالافكار ، وأفضت سماحة الدين إلى ان اخذ المسلمون في دراسة العلوم والفنون والصنائع

المأمون فوصلت به دولة العلم الى أوج قوتها، ونالت به أكبر ثروتها، ويقال انه حمل الى بغداد من الكتب المكتوبة بالقلم ما يثقل مئة بعير، وكان من شروط صلحه مع ميشيل الثالث أن يعطيه مكتبة من مكاتب الاستانة فوجد مما فيها من النفائس كتاب بطليموس في الرياضة السماوية فأمر المأمون في الحال بترجمته وسموه بالمجسطي، ولا يسهل على كاتب احصاء ما ترجم من كتب العلوم على اختلافها في دولة بني العباس أبناء عم الرسول ﷺ (١)

﴿ انشاؤهم دور الكتب العامة والخاصة ﴾

وقد أخذت دول الاسلام تعتني بديار الكتب عناية لم يسبقها مثلها من دول سواها، حتى كان في القاهرة في أوائل القرن الرابع مكتبة تحتوي على مئة ألف مجلد منها ستة آلاف في الطب والفلك لا غير . وكان من نظامها أن تعار بعض الكتب للطلبة المقيمين في القاهرة، وكان فيها كرتان سماويتان (احداهما) من الفضة يقال ان صانعها بطليموس نفسه وانه أنفق فيها ثلاثة آلاف دينار (والثانية) من البرنز ، ومكتبة الخلفاء في اسبانيا بلغ ما فيها ستمائة ألف مجلد وكان (فهرسها) اربعة وأربعين مجلداً . وقد حققوا انه كان في أسبانيا

(١) يلاحظ أن اشد أولئك الخلفاء عناية بالعلوم والفنون هم اعلمهم بالدين الاسلامي وأشدهم محافظة عليه

الى عمر بن الخطاب رضي الله عنه فلما سأل عنه دل عليه فذهب اليه فاذا هو نائم على الارض تحت نخل البقيع بين الفقراء ، وجاءت رسل الملوك الى معاوية رحمه الله فاذا هو في قصر مشيد محلى البنيان باجمل مايكون من الصنعة العربية ، مزين بالجنات والرياض وينابيع الماء ، مفروش باحسن الفرش ، يرى الناظر فيه أفخر الاثاث والرياش ، ولم يكن معاوية في ذلك قد خالف الدين او حاد عن طريقه ، وانما تناول مباحاه وتمتع برخصة آتاه الله اياها ، ولا يخفى ما في ذلك من ترويج فنون الابداع في الصنعة على اختلاف ضروبها

اشتغالهم بالعلوم الكونية

(في أوائل القرن الثاني)

انقضت دولة بني أمية والناس في ظلمات من الفتن كما قلنا ، ودالت الدولة لبني العباس واستقرت في نصابها من آل بيت النبي قرب نهاية الثلث الاول من القرن الثاني للهجرة (سنة ١٣٢) ثم نقل المنصور عاصمة الملك الى بغداد فصارت بعد ذلك عاصمة العلم والمدنية أيضاً ، وأخذ المنصور أيضا ينشيء المدارس للطب والشريعة ، وكان قد جعل من زمنه ماينفقه في تعلم العلوم الفلكية ، وأكمل حفيده الرشيد ماشرع فيه وأمر بان يلحق بكل مسجد مدرسة لتعليم العلوم بانواعها ، وجاء

ويتداولها الناس بدون أدنى مراقبة ولا حجر ولا نقص شيء مما كتب صاحب الكتاب، غير ان مؤرخا واحداً رأيته ذكر انه قد وضع قانون في بعض الممالك الاسلامية لنشر كتب العقائد مقتضاه أن لا ينشر منها شيء إلا باذن، على أني لا أعلم شيئا من ذلك وقع في الممالك الاسلامية أيام كان الاسلام اسلاما

نرجع الي الكلام في المدارس الاسلامية : يقول (جبون) في كلامه على حماية المسلمين للعلم في الشرق وفي الغرب : « ان ولاة الاقاليم والوزراء كانوا ينافسون الخلفاء، في اعلاء مقام العلم والعلماء، وبسط اليد في الانفاق على إقامة بيوت العلم ومساعدة الفقراء على طلبه، وكان عن ذلك أن ذوق العلم ووجدان اللذة في تحصيله قد انتشر في نفوس الناس من سمرقند وبخارى الى فاس وقرطبة . أنفق وزير واحد لاحد السلاطين (هو نظام الملك) مئتي ألف دينار على بناء مدرسة في بغداد وجعل لها من الريع يصرف في شؤونها خمسة عشر ألف دينار في السنة، وكان الذين يغذون بالمعارف فيها ستة آلاف تلميذ فيهم ابن أعظم العظماء في المملكة، وابن أفقر الصناع فيها، غير أن الفقير ينفق عليه من الريع المخصص للمدرسة وابن الغني يكتفي بمال أبيه، والمعلمون كانوا ينقدون رواتب وافرة » اه

انقسمت الممالك الاسلامية في زمن من الازمان الى ثلاثة

وحدها سبعون مكتبة عمومية، وكان في هذه المكاتب مواضع خاصة للمطالعة والنسخ والترجمة

وبعض الخاصة كانوا يولعون بالكتب ويجعلون ديارهم معاهد دراسة لما تحتوي عليه. يقال ان سلطان بخارى دعا طبيبا أندلسيا ليزوره. فأجابه ان ذلك لا يمكنه لان كتبه تحتاج الى أربعمائة جمل لتحملها وهو لا يستغني عنها كلها. وكان حنين بن إسحق النسطورى في بغداد ممن جعل في داره مكتبة عامة يفد اليها طلاب العلوم العقلية والرياضية وكان يتبرع بمذاكرتهم فيما يريدون المذاكرة فيه

﴿ انشاؤهم المدارس للعلوم وطريقة التدريس فيها ﴾

غطي بسيط المملكة الاسلامية على سعتها بالمدارس . نقول «على سعتها » لأنها زادت في السعة على المملكة الرومانية بكثير ، فكنت تجد المدارس في كل الاقطار : في المغول ، في التتار ، من جهة المشرق في مراكش ، في فاس ، في اسبانيا من جهة المغرب

كانت طريقة الاساتذة في التدريس ان كل مدرس يعد درسه ويكتب في الموضوع الذي يأتي الدرس فيه ما يريد ان يكتب، ثم يلقيه على التلامذة وهم يكتبون عنه ثم تكون هذه الدروس كتبا وأمالي تنتشر بين الناس في كل علم . وهنا نبادر إلى القول بان المؤرخين قد أجمعوا على ان جميع المقالات والكتب كانت تنتشر

الصحيحة . وكان مترجموهم في أول الامر مسيحيين وصابئين وغيرهم ثم تعلم كثير من علماء المسلمين اللسان اليوناني واللاتيني وكتبوا معاجم في اللسانين وذلك كله ليأخذوا العلوم من أصولها ، وينقلوها إلى لسانهم على حسب مايصل اليه علمهم فيها . وكان المعلمون لابناء العظماء في أول الامر من المسيحيين واليهود ، ثم أنشئت المدارس الجامعة وكان المدرسون فيها من كل ملة ودين ، كل يعلم العلم الذي عرف هو بالبراعة فيه .

علوم العرب واكتشافاتها

كان علم العرب في أول الامر يونانيا، لكنه لم يلبث كذلك إلا دون قرن واحد ثم صار عربيا،ولم يرض العربي أن يكون تلميذاً لارسطو وأفلاطون أو اقليدس أو بطليموس زمنا طويلا كما بقي الاوربي كذلك عشرة قرون كاملة من التاريخ المسيحي

قالوا :إن (باكون)هو أول من جعل التجربة والمشاهدة قاعدة للعلوم العصرية أو أقامها مقام الرواية عن الاساتذة والتمسك بآراء المصنفين ، وأطلق العلم من رق التقليد . ذلك حق في أوربا وأما عند العرب فقد وضعت هذه القاعدة عندهم لبناء العلم عليها في أواخر القرن الثاني من الهجرة .

أقسام وتنازع الخلافة ثلاث شيع كان العباسيون في آسيا (الشرق) والامويون في الاندلس من أوربا (الغرب) والفاطميون في مصر من أفريقيا (الوسط) ولم يكن تنافس هذه الدول الثلاث قاصراً على الملك والسلطان ولكن كان التنافس أشد التنافس في العلم والادب، وكان مرصد سمرقند قائما في ناحية المشرق يشير الى ما كان عليه المشرقيون من العناية برياضة الافلاك، ومرصد جيرالد في الاندلس يجيبه بأن أهل المغرب ليسوا بأحط منهم في الادراك،

جميع المدارس في البلاد الاسلامية أخذت نظام الامتحان في المدارس الطبية عن مدرسة الطب في القاهرة وكان من أشد النظامات وأدقها، ولم يكن لطبيب أن يمارس صناعته إلا على شريطة أن تكون بعد شهادة بأنه فاز في الامتحان على شدته، وأول مدرسة طبية أنشئت في قارة أوربة على هذا النظام المحكم هي التي أنشأها العرب في (ساليرن) من بلاد ايطاليا وأول مرصد فلكي أقيم في أوربا هو الذي أقامه العرب في اشبيلية من بلاد اسبانيا

ولع المسلمون بالعلوم الكونية على اختلافها، والفنون الادبية بجميع أنواعها، حتى القصص والاساطير الخيالية، في الاحوال الاجتماعية، وابتدءوا بأخذ العلم عن اليونانية والسريانية، وأخذوا ينقلون كتب الاولين من تلك الالسن إلى اللغة العربية بالترجمة

جداول في غاية الدقة والصحة ، كما وضعوا جداول للارصاد الفلكية ، وكانت تلك الجداول معروفة يطلع عليها الناظرون في سمرقند وبغداد وقرطبة حتى لقد وصلوا بتلك القوانين إلى مايقرب من اكتشاف الجاذبية.

لا يمكنني في مقالي هذا أن أعد ما اكتشف العرب ولا مازادوه في العلوم على اختلاف انواعها فذلك يحتاج إلى سفر كبير، وقد أحصى ذلك أهل المعرفة والانصاف من فلاسفة الاوربيين ومؤرخيهم ، وربما يتيسر لأبناء الامة العربية أن ينشروا ذلك لاخوانهم حتى يعرفوا ما كان عليه أسلافهم[1] ولكنني أذكر كلمة قالها بعض حكماء الغربيين[2]

« تأخذنا الدهشة أحيانا عند ما ننظر في كتب العرب فنجد آراء كنا نعتقد انها لم تولد إلا في زماننا ، كالرأي الجديد في ترقي الكائنات العضوية وتدرجها في كمال انواعها ، فان هذا الرأي كان مما يعلمه العرب في مدارسهم وكانوا يذهبون به إلى أبعد مما ذهبنا ، فكان عندهم عاما يشمل الكائنات غير العضوية والمعادن . والاصل الذي بنيت عليه الكيمياء عندهم هو ترقي المعادن في أشكالها . قال الخازني إذا سمع الشعب الجاهل مايقال بين العلماء : ان الذهب قد تقلب في الاشكال المختلفة حتى صار ذهباً ظن من هذا أنه مر في صور معادن

(١) المنار : قد نشرنا جملة صالحة من ذلك في مقالات « مدنية العرب » بالمجلد الثالث (٢) هو الفيلسوف درابر الاميركاني

أول شيء تميز به فلاسفة العرب عمن سواهم من فلاسفة الامم هو بناء معارفهم على المشاهدات والتجربيات، وأن لا يكتفوا بمجرد المقدمات العقلية في العلوم مالم تؤيدها التجربة، حتى لقد نقل جوستاف لوبون عن أحد فلاسفة الاوربيين أن القاعدة عند العرب هي « جرب وشاهد ولاحظ تكن عارفا » وعند الاوربي إلى مابعد القرن العاشر من التاريخ المسيحي « اقرأ في الكتب وكرر ما يقول الاساتذة تكن عالما » فلينظر المصريون وغيرهم من الشرقيين كيف انقلبت الحال، وماذا أعقب من سوء المآل

قال (ديلامبر) في تاريخ علم الهيئة « إذا عددت في اليونانيين اثنين أو ثلاثة من الراصدين أمكنك أن تعد في العرب عدداً كبيراً غير محصور » وأما في الكيمياء فلا يمكنك أن تعد مجربا واحداً عند اليونانيين ، ولكنك تعد من المجربين مئين عند العرب . ولهذا عدت الكيمياء الحقيقية من اكتشاف العرب دون سواهم . وقد كانوا يعدون الهندسة والفنون والرياضة من الآلات المنطقية ، يستعملونها في الاستدلال على القضايا النظرية ، وهي من أصدق الادلة في الايصال إلى المجهولات كما هو معروف

العرب هم أول من استعمل الساعات الدقاقة للدلالة على أقسام الزمن ، وهم أول من أتقن استعمال الساعات الزوالية لهذا الغرض

قد اكتشفوا قوانين لثقل الاجسام جامدها ومائعها حتى وضعوا لها

العالم باق آخر . وهو يقرب من قولهم السابق . فان ابن رشد كان مسلما وكان يعرف ان الاسلام لا ينافي العلم وإنما ينافي هذا الضرب من الوهم ، الذي لم يسقط فيه أحد الا من عثرة في طريق العلم ، أوالاسترسال مع الخيال . وكثير ممن سكروا بهذا الرأي أفاقوا منه . ولكن كتب ابن رشد التي بين أيدينا تبعد بنا عن نسبة هذا الرأي اليه كما سبق بيانه (١) ولكني لاأنكر نسبته لو نسب الى ابن سبعين وهو ممن أخذ عن تلاميذ ابن رشد فان في كلامه مايدل على ذلك

ويقول فيلسوف آخر : « ان العلوم التي تلقاها العرب عن اليونانيين وغيرهم وكانت ميتة بين دفات الدفاتر ، مقبورة بين جدران المكاتب ، أو مخزونة في بعض الرؤس كأنها أحجار ثمينة في بعض الخزائن ، لاحظ للانسانية منها سوى النظر اليها ـ صارت عند العرب حياة الآداب ، وغذاء الارواح ، وروح الثروة ، وقوام الصنعة ، ومهمازا للقوى البشرية يسوقها الى كمالها الذي أعدت له . وليس في الاوربيين من درس التاريخ وحكم العقل ثم ينكر ان الفضل — في اخراج أوربا من ظلمة الجهل الى ضياء العلم ، وفي تعليمها كيف تنظر وكيف تتفكر وفي معرفتها أن التجربة والمشاهدة

(١) يعني قد سبق ذلك في المقالة الاولى التي رد بها الكاتب على الجامعة ونشرت في المنار وجعلناها هنا في آخر الكتاب

أخرى فكان رصاصا ثم قصديرا ثم صفرا ثم فضة ثم صار بعد ذلك ، ذهبا ولا يعلم أن الفلاسفة اذا قالوا ذلك فانما يقصدون منه ما أرادوه من قولهم في الانسان انه وصل الى حالته الحاضرة بالتدريج ومن طريق الترقي وهم لم يعنوا بقولهم هذا أنه تقلب في صور الانواع المختلفة كأن كان ثورا ثم حمارا ثم فرسا ثم قردا ثم صار بعد ذلك انسانا » اه

ويقول الفيلسوف كوستاف لبون : « ان العرب أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين »

وهنا أنكر على بعض فلاسفتهم ما نقلوه عن ابن رشد من أنه ذهب في حرية الرأي الى نقض أصل الدين وقال : إن الروح لا بقاء لها بعد فناء الجسد وإنما الذي يبقى هي أرواح الانواع . فان هذا خطأ عرض لهم من سوء فهم كلامه في بيان بقاء الانواع دون الاشخاص فانه قال كما قال أرسطو وغيره : ن الاشخاص توجد وتفنى وأما الانواع فهي باقية لا تزول : وهذا باب آخر لا يغاير بالمرة ما استنتجوا منه (وقد سبق الكلام في بيان رأيه من وجه آخر(١) ، كما أخطأوا في قولهم عنه انه كان يعتقد بأن الله روح العالم يظهر في صوره والكل يرجع اليه بمعنى انه يفنى في ذاته ولا يبقى في

---

(١) يعني قد سبق في المقالة الاولى مما نشر في المنار وقد جعلناها هنا في آخر الكتاب

أخذ الخلفاء والامراء

(بيد العلم والعلماء)

ان الخلفاء الذين يقال عنهم انهم رؤساء دين وحكام سياسة معا كانوا هم بأنفسهم المعلمين للعلوم الداعين الى تعلمها ، كانوا العالمين العاملين. كان خليفة كالمأمون يضطهد أحيانا اعداء الفلسفة، وقد عرف التاريخ كثيرين من ارباب الشهرة الذين قضوا فى سجنه الشهور أو السنين، لانهم كانوا يعادون الفلسفة ظنا منهم ان منها ما يعدو على الدين فيفسده، هل رايت في غير الاسلام رئيسا دينيا يضطهد أعداء العلم وجفاة الفلسفة ؟ لعلك لاتجده ابدا

كان اهل العلم والادب عامة يجدون من الاحترام عند الخلفاء والامراء والخاصة ما يليق بهم كيفما كانت حالهم ، واضرب المثل بالشيخ ابي العلاء المعري، لشهرته بين الناس بما ينسبه الزندقة

يذكر علي بن يوسف القفطي ان صالح بن مرداس – صاحب حلب – خرج الى المعرة وقد عصى اهلها عليه ، فنازلها وشرع في حصارها ورماها بالمنجنيق، فلما أحس أهلها بالغلب سعوا الى أبي العلاء بن سليمان وسألوه ان يخرج ويشفع فيهم ، فخرج ومعه قائد يقوده فاكرمه صالح واحترمه، ثم قال : ألك حاجة ؟ قال : الامير – أطال

هما الاصلان اللذان ينبني عليهما العلم — انما هو المسلمين وآدابهم ومعارفهم التي حملوها اليهم وأدخلوها من أسبانيا وجنوب ايطاليا وفرنسا عليهم . وكان من حظ العلم العربي والادب المحمدي عند مادخلا الى ايتاليا أن البابا كان غائباً لان كرسيه كان انتقل الى فرنسافي افنيون نحو سبعين سنة فدب العلم الى شمال ايطاليا واستقر به القرار هناك ، ان شوارع باريس لم تفرش بالحجارة الا في القرن الثاني عشر وقد رصت بالبلاط على نحو مارصت به مدن اسبانيا »اه

ويقول آخر : « لاأدري كيف أعطانا الاسلام في مدة قرنين عدد من الفلكيين يطول سرد أفراده وان الكنيسة تسلطت على العالم المسيحي اثنى عشرة قرنا في أوربا ولم تمنحنا فلكيا واحد »

هذا النماء والزكاء العلمي لم يكن خاصا بطائفة دون طائفة بل كان الناس في التمكن من تناوله سواء ، وانما كان التفاضل بالجد والعمل ، والفضل في ذلك كله لحلم الخلفاء واعمالهم وسماحة الدين ويسره وسهولته على أهله وأهل ذمته ، قال بعض فلاسفة الغربيين قولا يعرفه الحق وتثبته المشاهدة : «ان شعوب الارض لم ترقط فاتحا بلغ من الحلم هذا المبلغ (يريد فاتحي الاسلام على اختلافهم) ولادينا بلغ في لينه ولطفه هذا الحد»

الكاثوليك مالم يقولوه، ويرون أن النظر في كتبهم لايجوز في شريعة الدين، ونحن لانرتاب في أن نحو هذا كان عند المسلمين أيام كانت سوق الفلسفة رائجة عندهم، ولكنه ليس من الاضطهاد في شيء، وإنما هي نفرة الانسان مما لايعرف مع ترك صاحبه وشأنه يمضي في سبيله إلى حيث يشاء

يقول آخرون : ان التاريخ يروي لنا أن بعض أرباب الافكار قد أخذه السيف لغلوه في فكره، فلم يترك له من الحرية ما يتمتع به إلى منتهى مايبلغ به، وليس يصح أن ينكر ماصنع الخليفة المنصور وغيره بالزنادقة

وأقول : ان كثيراً من الغلو إذا انتشر بين العامة أفسد نظامها واضطرب أمنها، كما كان من آراء الحلاج وأمثاله(١) فتضطر السياسة للدخول في الامر لحفظ أمن العامة، فتأخذ صاحب الفكر، لا لانه تفكر ولكن لانه لم يرد أن يقصر حق الحرية على شخصه بل أراد أن يقيد غيره بما رآه من الحرية لنفسه، مع أن غيره في غنى عما يراه هو حقا له، وتخشى الفتنة اذا استمر مدعي الحرية في غلوائه، فلهذا يرى حفاظ النظام أن أمثال هؤلاء يجب أن ينفى منهم المجتمع صونا

«١» ذكر امام الحرمين في كتابه (الشامل) في أصول الدين انه كان بين الحلاج والجبائي رئيس القرامطة اتفاق سري على قلب الدولة، وان ذلك هو السبب الحقيقي في قتل الحلاج

الله بقاءه — كالسيف القاطع لان مسه، وخشن حده، وكالنهار البالغ، قاظ وسطه وطاب برده (خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين) فقال له صالح : قد وهبتها لك ، ثم قال: انشدنا شيئا من شعرك لنرويه، فأنشده على البديهة أبياتا فيه، فترحل صالح. فانظر كيف وهب الامير بلداً عصى أهله لفيلسوف معروف بما هو عنه معروف.

ولو ذكرت مانال العلماء والفلاسفة عند الامراء والخلفاء اطال بي المقال أكثر مما طال، وفيما سبق كفاية لمكتف

ازالة شبهتين

(وبيان حقيقة الاضطهاد)

قد يتوهم قوم ان الاضطهاد قد يظهر في مقت العامة وخلقهم مايخلقون من المفتريات على أهل العلم والفكر الحر ، وهمس بعضهم في آذان بعض ، وتغامزهم على أهل الفضل ، ولمزهم إياهم بالالقاب، بل واحتقارهم في بعض الاحيان . وهذا النوع منه عند المسلمين بلا نكير. وهو خطأ ظاهر لان هذا النوع ممن يكره أهل العلم لا تخلو منه أرض ولا تطهر منه بلاد مهما بلغ أهلها من الحرية ، ومهما بلغ ذوق العلم من نفوس أهلها ، فان القائمين على عقيدة الكاثوليك الى اليوم في أرض فرنسا نفسها يمقتون الفلاسفة الذين يظهرون بمعاداة الكنيسة ويكتبون ما يوهن قواعدها وقد يختلق عليهم أحزاب

كان عمرو بن عبيد رئيس المعتزلة وأشدهم صلابة في أصول مذهبه ، ومع ذلك هو من مشايخ الامام البخاري صاحب الصحيح ، وكانت له منزلة عند المنصور تعلو كل ذي منزلة عنده ، حتى قال له يوما وهو خارج من بين يديه « رميت لكل الناس حباً فالقطوا إلا إياك يا عمرو بن عبيد » فانظر كيف كان لامام من أئمة السنة ان يصل سنده في الحديث برئيس من رؤساء المعتزلة ولا يرى في ذلك بأسا ؟

إذا عدَّ عادٌّ بعض رجال العلم الذين أخذتهم القسوة في الاسلام وقتلتهم حماقة الملوك باغراء الفقهاء وأهل الغلو في الدين ، فما عليه إلا ان ينظر في احوالهم فيقف لأول وهلة على أن الذي أثار اولئك عليهم ليس مجرد العصبية للدين ، وان ليست الغيرة عليه هي الباعث لهم على الوشاية بهم ، وطلب تنكيلهم ، وإنما تجد الحسد هو العامل الاول في ذلك كله والدين آلة له . ولهذا لا ترى مثل ذلك الاذى يقع إلا على قاضي قضاة كابن رشد (ورجوع الحاكم إلى العفو عنه وإنزاله منزلته دليل على ذلك) أو وزير ، او جليس خليفة او سلطان ، او ذي نفوذ عظيم بين العامة . وهذا كما يقع من الفقهاء مثلا لايذاء الفلاسفة ، يقع من الفقهاء بعضهم مع بعض ، لاهلاك بعضهم بعضا ، كما يشهد به العيان ، ويحكي لنا التاريخ ، فليس هذا كذلك معدوداً من معنى اضطهاد الدين للفلسفة ، لان التحاسد أكثر ما يقع بين من

له عما يزعزع أركانه . ونحن نرى الفلسفة اليوم تضطهد الدين هذا الضرب من الاضطهاد . ألم تقض الحكومة الفرنسية على الراهبين والراهبات أن تكون جمعياتهم ومدارسهم تحت سيطرة الحكومة ؟ وأن لاينشأ شيء منها إلا باذن من الحكومة ، ومن لم يخضع لذلك تنحل جمعيته وتقفل مدارسه بقوة السلاح ، وقد ينفى من البلاد كما نفي كثيرون في سنين سابقة(١) ولكن هل يسمى هذا اضطهاداً ؟ كلا ، انما الاضطهاد حق الاضطهاد هو اضطهاد محكمة التفتيش واضطهاد رؤساء الاصلاح بعدها في أول نشأتهم

ماذا يقول القائلون ؟ أن التعليم عند المسلمين كان غريباً أمره ، يكاد يكون خفياً سره ، مسجد أو مدرسة تابعة لمسجد ، يجلس فيها للتدريس الفقيه والمتكلم والمحدث والنحوي والمتأدب والفيلسوف والفلكي والمهندس ، ينتقل الطالب من بين يدي الفقيه ليجلس بين يدي الفيلسوف ، ومن مجالس الحديث إلى مجالس الادب ، وإذا وقعت مذاكرة بينهم في مسألة من المسائل أخذت الحرية مأخذها في الاقناع والالزام ، وسقطت قيمة الغلو في التعبير ، وأخذ التسامح بينهم مأخذه .

---

١) أغرب من هذا أن أحد الاساتذة في مدارس اميركا الجامعة قرر فيها نظرية دارون المعروفة فانكرها عليه جمهور الطلبة لمخالفتها للتوراة فطرد من المدرسة

الاسلام اليوم

﴿ أو الاحتجاج بالمسلمين على الاسلام ﴾

(المقال الرابع لذلك الامام الحكيم)

ربما يسأل سائل فيقول : سلمنا أن طبيعة الاسلام تأبى اضطهاد العلم بمعناه الحقيقي وانه لم يقع من المسلمين الاولين تعذيب ، ولا احراق ، ولا شنق لحملة العلوم الكونية ، ومقومي العقول البشرية ، لكن أليس العلماء من المسلمين اليوم أعداء العلوم العقلية ، والفنون العصرية ، أو ليس الناس تبعا لهم ؟ أفلا يكون للاديب عذره فيما يراه ويسمعه حوله ؟ ألم يسمع بان رجلا في بلاد اسلامية غير البلاد المصرية (١) كتب مقالا في الاجتهاد والتقليد وذهب فيه الى ماذهب اليه أئمة المسلمين كافة ، ومقالا بين فيه رأيه في مذهب الصوفية ، وقال انه ليس مما انتفع به الاسلام بل

(١) هذا الرجل هو السيد عبد الحميد الزهراوي الحمصي الشهير رحمه الله ومقالاه في الفقه والتصوف نشرا في المنار وطبعا على حدة وقد وشى به بعض حساده في دمشق الى والي الشام فاعتقله الوالي وكان السبب الحقيقي لاعتقاله مقالة له في الخلافة نشرت في المقطم (راجع ترجمته في المنار ص ١٩٦ م ١٩)

لا دين لهم على الحقيقة وان لبسوا لباسه . وانما ذلك الاضطهاد هو الذي يحمل عليه محض الاختلاف في العقيدة او ظن المخالفة للدين في شيء من العلم او العمل لضيق الدين عن أن يسع المخالف بجانبه وهذا لم يقع في الاسلام، اللهم إلا ان يكون حادث لم يصل الينا

هـذه طبيعة الدين الاسلامي عرضت عليك في أهم عناصرها ومقومات مزاجها . وهـذا كان أثرها في العالم الشرقي والغربي . وهذه سعة فضل الدين وقوته على احتمال مخالفيه وتيسيره لاولئك المخالفين أن يجتمعوا به متى رضوا بان يستظلوا بظله ، هل في هـذا خفاء على ناظر ، وهل يرضى لبيب لنفسه أن ينكر الضوء الباهر ؟ أفلا يبسم الاسلام عجبا وهو في أشد الكرب لعقوق أبنائه ، من أديب لم يكن يعده من أعدائه، ان لم يحسبه في أحبائه ، عند ما يراه يسدد سهمه اليه ، ويجور، كما يجور الجائرون في حكمه عليه ؟؟

خرق حرمة الدين ، واتبع سبيلا غير سبيل المؤمنين ، وربما كان يجتريء الاستاذ على طعن الشيخ السنوسي بالحربة لو لاقاه وانما الذي خاص السنوسي من الطعنة ، ونجى الشيخ المرحوم من سوء المغبة ، وارتكاب الجريمة باسم الشريعة ، هومفارقة السنوسي للقاهرة قبل أن يلاقيه الاستاذ المالكي

هل غاب عن الاذهان ما كان ينشر في الجرائد من نحو ثلاث سنين باقلام بعض علماء الجامع الازهر من المقالات الطويلة الاذيال الواسعة الاردان ، في استهجان ادخال علم تقويم البلدان (الجغرافية) بين العلوم التي يتلقاها طلبة الجامع الازهر ؟ وكان كتاب تلك المقالات يعرضون بمن أشار بادخال هذا العلم وغيره بين تلك العلوم وانه انما يريد الغض من علوم الدين (١) أم لم تنشر في العام الماضي فصول بأقلام بعضهم تشير إلى مطعن في عقيدة البعض الآخر وإرادة التشهير به مع انه لم يجهر بمنكر ولم يقل قولا يبعد من الكتاب والسنة ؟

ألم تحمل الينا الرواة ماعند علماء الافغان والهند والعجم من شدة التمسك بالقديم ، والحرص على ماورثوا عن آبائهم الاقربين ، وإقامة الحرب على كل من حاول أن يزحزحهم أصبعا عما كان عليه سلفهم ، وان كان في البقاء عليه تلفهم ، وما عليه الحال اليوم في

(١) يعني الاستاذ بهذا نفسه فهو الذي اشار بتعليم هذه العلوم

قد يكون مما رزيء به أو مايقرب من هذا — وهو قول قال به جمهور أهل السنة من قبله — فلما طبع مقاله في مصر تحت اسمه هاج عليه حملة العمائم ، وسكنة الاثواب العباعب ، وقالوا : انه مرق من الدين ، أو جاء بالافك المبين ، ثم رفع أمره الى الوالي فقبض عليه وألقاه في السجن ؛ فرفع شكواه الى عاصمة الملك وسأل السلطان أن يأمر بنقله الى العاصمة ليثبت براءته مما اختلق عليه ، بين يدي عادل لايجور ، ومهيمن على الحق لايحيف ، الخ مايقال في الشكوى . فأجيب طلبه ، لكن لم ينفعه ذلك كله ، فقد صدر الامر هناك أيضاً بسجنه ولم يعف عنه الا بعد أشهر ، مع انه لم يقل الا مايتفق مع أصول الدين ، ولا ينكره القاريء والكاتب ، ولا الآكل والشارب

ألم يسمع السامعون أن الشيخ السنوسي (والد السنوسي صاحب الجغبوب) كتب كتابا في أصول الفقه زاد فيه بعض مسائل على أصول المالكية ، وجاء في كتاب له مايدل على دعواه أنه ممن يفهم الاحكام من الكتاب والسنة مباشرة ، وقد يرى مايخالف رأي مجتهد أو مجتهدين . فعلم بذلك أحد المشايخ المالكية (رحمه الله تعالى) وكان المقدم في علماء الجامع الازهر الشريف (١) فحمل حربة وطلب الشيخ السنوسي ليطعنه بهالانه

(١) هو الشيخ عليش الذي كان ينكر على السيد جمال الدين والشيخ محمد عبده أيضا طريقتهما في تحقيق المسائل الشرعية على طريقة السلف

اللهم إلا فئة زعمت انها نفضت غبار التقليد، وأزالت الحجب التي كانت تحول بينها وبين النظر في آيات القرآن ومتون الاحاديث، لتفهم أحكام الله منها، ولكن هذه الفئة أضيق عطنا وأحرج صدرا من المقلدين، وإن انكرت كثيرا من البدع، ونحت عن الدين كثيرا مما اضيف اليه وليس منه، فانها ترى وجوب الاخذ بما يفهم من اللفظ الوارد والتقيد به، بدون التفات إلى ماتقتضيه الاصول التي قام عليها الدين، واليها كانت الدعوة، ولاجلها منحت النبوة، فلم يكونوا للعلم اولياء، ولا للمدنية السليمة احباء(١)

هل يمكن ان ينكر احد جمود الفقهاء ووقوفهم عند عبارات المصنفين على تباينها واختلافها واضطراب الآراء في فهمها؟ وإذا عرضت حادثة من الحوادث ولم يكن لمصنف معروف رأي فيها أحجموا عن إبداء الرأي، واجتهدوا في تحويلها عن حقيقتها، إلى ان تتفق مع قول معروف في كتاب من الكتب، حتى لقد جاء طالب علم من بلد من بلاد الدولة العثمانية وأراد الالتحاق بأحد الاروقة في الجامع الازهر فوقع الشك: هل بلده مما لأهله استحقاق في ذلك الرواق على حسب

(١) يعني بهذه الفئة أهل الحديث ومن يسمون الوهابية، فقد كان يحمد منهم ترك البدع. والاهتداء بالسنن. وتقديم الاثر، على آراء البشر، وينكر عليهم ضيق العطن دون ما ارشدت اليه النصوص من علوم الاكوان، ومقدمات المدنية والعمران، التي تعتز بها الامة، وتعلو كلمة الملة

حكومة المغرب من الغلو في التعصب ، والمعاقبة بقطع بعض الاعضاء في شرب الدخان ، او بالقتل في كلمة ينكرها السامعون ، وان أجمع عليها المسلمون الآخرون ،

ثم ألا يتخيل المتأمل انه يسمع من جوف المستقبل صخبا ولجبا ، وضوضاء وجلبة ، وهيعات مضطربة ، اذا قيل انه ينبغي لطلبة الازهر أن يدرسوا طرفا من مبادىء الطبيعة أو يحصلوا جملة من التاريخ الطبيعي ؟ ألا تقوم قيامة المتقين ، ألا يصيحون أجمعين أكتعين أبتعين : هذا عدوان على الدين ، هذا توهين لعقده المتين ، هذا تغرير بأهله الساكين ، ولا يزالون يشيدون بهذا إلى أن لا يبقى شيء عرف له اسم في اللغة إلا ألصقوه بهذه البدعة في زعمهم

هل هذه الحال جديدة على المسلمين ، حتى يقال انها عارض عرض عليهم ، او مرض من الامراض الوافدة اليهم ؟ لا يسهل على من يعرض احوال المسلمين تحت نظره من قرون متعددة ان يظن ان هذه الحال من العلل الطارئة على أمزجة الامم ، خصوصا عندما يجد الوحدة في الصفات ، والشمول في جميع الاعتبارات ، فلو أخذ مسلما من شاطىء الاطلانطيقي ، وآخر من تحت جدار الصين لوجد كلمة واحدة تخرج من افواههما وهي (إنا وجدنا آباءنا على امة وإنا على آثارهم مقتدون) وكلهم اعداء لكل مخالف لما هم عليه ، وإن نطق به الكتاب ، واجتمعت عليه الآثار

الاخبار مايدل على انه كائن لامحالة ، وان الاسلام لابد أن يرفع من الارض ، ولا تقوم القيامة الا على لكع بن لكع . واحتجوا على اليأس والقنوط بآيات وأحاديث وآثار تقطع الامل ، ولا تدع في نفس حركة الى عمل؟؟

رأى رينان فى الاسلام

هذا الجمود — الذي لو أردنا بيان ماامتد اليه من طيات الافكار ، وثنيات الوجدان ، لكتبنا فيه كتابا — هو الذي حمل الموسيو رنان الفيلسوف الفرنسي المشهور ان يقول في عرض كلام له في تساهل المذاهب الدينية مع العلم نقلته عنه الجامعة : « على انني أخشى ان يثبت الدين الاسلامي وحده في وجه هذا التسامح العام في العقائد ، ولكنني أعرف ان في نفوس بعض الرجال المتمسكين بآداب الدين الاسلامي القديمة وفي بضعة من رجال الاستانة وبلاد الفرس جراثيم جيدة، تدل على فكر واسع ، وعقل ميال الى المسامحة، إلا انني أخشى ان تختنق هذه الجراثيم بتعصب بعض الفقهاء، فاذا اختنقت تقضي على الدين الاسلامي . ذلك انه من الثابت الآن أمران — الاول ان التمدن الحديث لا يريد إماتة الاديان بالمرة لانهـا تصلح ان تكون وسيلة اليه . والثاني انه لا يطيق ان تكون الاديان عثرة في سبيله . فعلى هذه الاديان ان تسالم وتاين ، وإلا كان موتهـا ضربة

نص الواقف ؟ فقال قائل لشيخ الرواق : ان كتب تقويم البلدان. تشهد بأن البلد داخل في شرط الواقف . فقال: انني لا اقتنع بما في تلك الكتب،وانما الذي يصح ان آخذ به هو ان يكون فقيه (ممن مات) قال ان هذا البلد من قطر كذا ، وهو الذي وقف الواقف على اهله . وإذا قيل لأحدهم : ان الأئمة انفسهم لم يعينوا مواقع البلدان ولم يضعوا انا جدولا لبيان مايحويه كل قطر وبيان الحدود التي ينتهي اليها، وان أصول ديننا تسمح لنا بان نأخذ باقوال العلماء في هذه الفنون(وهم منا) وبتواتر الاخبار وما أشبه ذلك من البديهيات قال : انما أريد نصا فقهيا ، لا دليلا عقليا

واذا قيل لهم : اختلت الشؤون ، وفسدت الملكات والظنون، وساءت أعمال الناس ، وضلت عقائدهم ، وخوت عباداتهم من روح الاخلاص ، فوثب بعضهم على بعض بالشر ، وغالت أكثرهم أغوال الفقر ، فتضعضعت القوة ، واخترق السياج ، وضاعت البيضة ، وانقلبت العزة ذلة ، والهداية ضلة ، وساكنتكم الحاجة ، وألفتكم الضرورة ، ولا تزالون تألمون مما نزل بكم وبالناس ، فهلا نبهكم ذلك الى البحث في أسباب ما كان سلفكم عليه ، ثم علل ماصرتم وصار الناس اليه ؟ قالوا : ذلك ليس الينا ، ولا فرضه الله علينا وانما هو للحكام ينظرون فيه ، ويبحثون عن وسائل تلافيه ، فان لم يفعلوا — ولن يفعلوا — فذلك لانه آخر الزمان ، وقد ورد في

فانا معك من الشاهدين . أعوذ بالله من السياسة ، ومن لفظ السياسة ، ومن معنى السياسة ومن كل حرف يلفظ من كلمة السياسة، ومن كل خيال يخطر ببالي من السياسة، ومن كل أرض تذكر فيها السياسة، ومن كل شخص يتكلم او يتعلم اويجن او يعقل في السياسة، ومن ساس ويسوس وسائس ومسوس

يدلك على أن العقوبة سياسية أن الرجل كان يقول بقول السلف من أهل الدين . لاتقل ان هذه السياسة من الدين، فاني أشهد الله ورسوله وملائكته وسلفنا أجمعين، ان هذه السياسة من أبعد الامور عن الدين، كأنها الشجرة التي تخرج في أصل الجحيم (طلعها كأنه رؤوس الشياطين * فانهم لآكلون منها فمالئون منها البطون * ثم ان لهم عليها لشوبا من حميم * ثم ان مرجعهم لالى الجحيم * انهم ألفوا آباءهم ضالين * فهم على آثارهم يهرعون)

جمود المسلمين واسبابه

وأما ما وصفت بعد ذلك من الجمود فهو مما لايصح أن ينسب إلى الاسلام، وقد رأيت صورة الاسلام في صفائها ونصوع بياضها ليس فيها مايصح أن يكون أصلا يرجع اليه شيء مما ذكرت ولامما تنبأ بسوء عاقبته (رنان) وغيره . وانما هي علة عرضت على المسلمين عند مادخل على قلوبهم عقائد أخرى سا كنت عقيدة الاسلام في أفئدتهم، وكان السبب في تمكنها من نفوسهم وإطفائها لنور الاسلام

لازب » اهـ كلام رنان بتصرف لفظي قليل

فمن أين يكون هذا الجمود العام، الذ[illegible] سمح للطاعنين ان يحكموا على الاسلام، بانه عثرة في طريق [illegible] ط بهم دون أن ينالوا فلاحا في سعيهم، أو نجاحا [illegible] ن يكون هذا الجمود ان لم يكن من طب[illegible] ما سردناه من الحوادث إن لم يكن [illegible] ن لم تسلم بأن هذا اضطهاد، وان الاض[illegible] سلامي، فعليك ان تسلم بأنه عداوة للعلم أو ا[illegible] هجان له، أو احتقار لشأنه. وأحد هذه الامور كاف اذا [illegible] المسلمين في أن ينفر بهم عن كل مجد، وان يحرمهم كل نفع . وأن يحقق فيهم ماتنبأ به رنان وغيره فما قولك في هذا ؟ ؟

الجواب

أقول هذا كلام فيه شية من الحق، ولمة من الصدق، أما مانسمعه من قولنا من سجن من قال بقول السلف فليس الحامل عليه التمسك بالدين، فان حملة العمائم انما حركهم الحسد لا الغيرة . وأما صدور الامر بالسجن فهو من مقتضيات السياسة ، والخوف من خروج فكر واحد من حبس التقليد، فتنتشر عدواه فيتنبه غافل آخر، ويتبعه ثالث، ثم ربما تسري العدوى من الدين إلى غير الدين — الى آخر مايكون من حرية الفكر (يعوذون بالله منها) .

فان شئت أن تقول ان السياسة تضطهد الفكر او الدين او العلم

التي ظن أنه يستعبدها بسلطانه، ويصطنعها باحسانه، فلا تساعد الخارج عليه، ولا تعين طالب مكانه من الملك، وفي سعة أحكام الاسلام وسهولته ما يبيح له ذلك، هنالك استعجم الاسلام وانقلب عجمياً،

خليفة عباسي أراد أن يصنع لنفسه ولخلفه، وبئس ما صنع بأمته ودينه(١) أكثر من ذلك الجند الاجنبي وأقام عليه الرؤساء، منه فلم تكن إلا عشية أو ضحاها حتى تغلب رؤساء الجند على الخلفاء، واستبدوا بالسلطان دونهم، وصارت الدولة في قبضتهم، ولم يكن لهم ذلك العقل الذي راضه الاسلام والقلب الذي هذبه الدين، بل جاءوا الى الاسلام بخشونة الجهل، يحملون ألوية الظلم، لبسوا الاسلام على أبدانهم، ولم ينفذ منه شيء الى وجدانهم، وكثير منهم كان يحمل إلهه معه يعبده في خلوته، ويصلي مع الجماعات لتمكين سلطته، ثم عدا على الاسلام آخرون كالتتار وغيرهم، ومنهم من تولى أمره

أي عدو لهؤلاء أشد من العلم الذي يعرف الناس منزلتهم، ويكشف لهم قبيح سيرهم؟ فالوا على العلم وصديقه الاسلام ميلتهم، أما العلم فلم يحفلوا بأهله، وقبضوا عنه يد المعونة، وحملوا كثيراً من أعوانهم أن يندرجوا في سلك العلماء وأن يتسربلوا بسرابيله، ليعدوا من قبيله، ثم يضعوا للعامة في الدين ما يبغض اليهم العلم ويبعد بنفوسهم

١) هو المعتصم بئسما صنع في نصر البدعة على السنة، وبئسما صنع في تمكين الترك من سلب ملك الامة

من عقولهم، هو السياسة كذلك، هو تلك الشجرة الملعونة في القرآن عبادة الهوى وإتباع خطوات الشياطين ــ هو السياسة

لم أر كالاسلام دينا حفظ أصله ، وخلط فيه أهله ، ولا مثله سلطانا تفرق عنه جنده ، وخفر عهده، وكفر وعيده ووعده، وخفي على الغافلين قصده ، وان وضح للناظرين رشده ، أكل الزمان أهله الاولين ، وأدال منهم خشارة(١) من الآخرين، لاهم فهموه فأقاموه، ولا هم رحموه فتركوه ، سواسية من الناس اتصلوا به، ووصلوا انسبهم بسببه وقالوا نحن أهله وعشيرته ، وحماته وعصبته، وهم ليسوا منه في شيء الا كما يكون الجهل من العلم . والطيش من الحلم، وأفن الرأي من صحة الحكم

أنظر كيف صارت مزية من مزايا الاسلام سببا فيما صار اليه أهله : كان الاسلام ديناً عربيا ، ثم لحقه العلم فصار علما عربيا، بعد أن كان يونانيا ، ثم أخطأ خليفة في السياسة فاتخذ من سعة الاسلام سبيلا الى ما كان يظنه خيراً له . ظن أن الجيش العربي قد يكون عونا لخليفة علوي، لأن العلويين كانوا ألصق ببيت النبي ﷺ . فأراد أن يتخذ له جيشاً أجنبيا من الترك والديلم وغيرهم من الأمم

«١» الخشارة بالمعجمتين كالحثالة وزنا ومعنى : الرديء ومالا خير فيه من كل شيء ، من خشارة الشعير وهي مالا لب له وخشارة التمر وهي رديئه والشيص منه ، وحثالة الطعام ما سقط منه اذا نقي

ظواهر الالفاظ لبعض الاحاديث مايعينهم على ذلك، وفي الموضوعات والضعاف ماشد ازرهم في بث هذه الاوهام

وقد انتشر بين المسلمين جيش من هؤلاء المضلين، وتعاون ولاة الشر على مساعدتهم في جميع الاطراف، واتخذوا من عقيدة القدر مثبطا للعزائم، وغلاًّ للايدي عن العمل. والعامل الأقوى في حمل النفوس على قبول هذه الخرافات إنما هو السذاجة، وضعف البصيرة في الدين، وموافقة الهوى — أمور إذا اجتمعت أهلكت، فاستتر الحق تحت ظلام الباطل، ورسخ في نفوس الناس من العقائد مايضارب أصول دينهم ويباينها على خط مستقيم كما يقال

هذه السياسة — سياسة الظلمة وأهل الاثرة — هي التي روجت ما أدخل على الدين مما لا يعرفه، وسلبت من المسلم أملا كان يخترق به أطباق السموات، وأخلدت به إلى يأس يجاور به العجماوات، فجلّ ماتراه الآن مما تسميه إسلاما فهو ليس باسلام، وإنما حفظ من أعمال الاسلام صورة الصلاة والصوم والحج، ومن الاقوال قليلا منها حرفت عن معانيها، ووصل الناس بما عرض على دينهم من البدع والخرافات إلى الجمود الذي ذكرته وعدّوه دينا، نعوذ بالله منهم ومما يفترون على الله ودينه، فكل ما يعاب الآن على المسلمين ليس من الاسلام، وإنما هو شيء آخر سموه إسلاما، والقرآن شاهد صادق (لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من

عن طلبه ، ودخلوا عليهم وهم أغرار من باب التقوى وحماية الدين، زعموا الدين ناقصا ليكملوه ، أو مريضاً ليعالوه ، أو متداعياً ليدعموه ، أو يكاد ينقض ليقيموه .

نظروا الى ما كانوا عليه من فخفخة الوثنية ، وفي عادات من كان حولهم من الامم النصرانية ، فاستعاروا من ذلك للاسلام ماهو براء منه ، لكنهم نجحوا في إقناع العامة بأن في ذلك تعظيم شعائره ، وتفخيم أوامره ، والغوغاء عون الغاشم ، وهم يد الظالم ، فخلقوا لنا هذه الاحتفالات ، وتلك الاجتماعات ، وسنوا لنا من عبادة الاولياء والعلماء والمتشبهين بهم مافرق الجماعة ، وأركس الناس في الضلالة وقرروا أن المتأخر ، ليس له أن يقول بغير مايقول المتقدم ، وجعلوا ذلك عقيدة ، حتى يقف الفكر ، وتجمد العقول ، ثم بثوا أعوانهم في أطراف الممالك الاسلامية ينشرون من القصص والاخبار والآراء ما يقنع العامة ، بأنه لا نظر لهم في الشؤون العامة ، وأن كل ماهو من أمور الجماعة والدولة فهو مما فرض فيه النظر على الحكام دون من عداهم ، ومن دخل في شيء من ذلك من غيرهم فهو متعرض لما لا يعنيه ، وأن ما يظهر من فساد الاعمال ، واختلال الاحوال ، ليس من صنع الحكام ، وإنما هو تحقيق لما ورد في الاخبار من أحوال آخر الزمان ، وانه لا حيلة في إصلاح حال ولا مآل ، وأن الأسلم تفويض ذلك إلى الله ، وما على المسلم إلا أن يقتصر على خاصة نفسه . ووجدوا في

يجدون انهم لن يبلغوا ذلك حتى يكونوا عربا بملكاتهم، يساوون من كانوا عربا بسلائقهم. فلما لم يبق للمتأخر إلا الاخذ بما قال المتقدم، قصر المحصلون تحصيلهم على فهم كلام من قبلهم، واكتفوا باخذ حكم الله منه بدون أن يرجعوا الى دليله، ولو نظروا في الدليل فرأوه غير دال له بل دالا لخصمه، بأن كان عرض له في فهمه مايعرض للبشر الذين لم يقرر الدين عصمتهم، لخطأوا نظرهم وأعموا أبصارهم، وقالوا: نعوذ بالله أن تذهب عقولنا الى غير ماذهب اليه متقدمنا، وأرغموا عقلهم على الوقفة فيصيبه الشلل من تلك الناحية. فأي حاجة له بعد ذلك إلى اللغة العربية نفسها، وقد يكفيه منها مايفهم به أساوب كلام المتقدم، وهو ليس من اولئك العرب الذين كان ينظر الاولون في كلامهم.

وهكذا كل متأخر يقصر فهمه على النظر في كلام من يليه هو غير مبال بسلفه الاول، بل ولا بما كان يحف بالقول من أحوال الزمان، فهو لاينظر الا اللفظ وما يعطيه، فتسقط منزلته في تحصيل اللغة بمقدار بعده عن أهلها حتى وصل حال الناس إلى مانراهم عليه اليوم: جعلوا دروس اللغة لفهم عبارة بعض المؤلفين في النحو وفنون البلاغة، وان لم يصلوا منها الى غاية في فهم ماوراءها فدرست علوم الاولين وبادت صناعتهم، بل فقدت كتب السلف الاولين رضي الله عنهم، وأصبح الباحث عن كتاب المدونة لمالك رحمه الله

حكيم حميد) يشهد بأنهم كاذبون ، وانهم عنه لاهون ، وعما جاء به معرضون ، وسنوفي لك الكلام في مفاسد هذا الجمود ، ونثبت انه علة لابد أن تزول

مفاسد هذا الجمود ونتائجه

طال أمد هذا الجمود لاستمرار عمل العاملين في المحافظة عليه، وولع شهواتهم بالدفاع عنه، وقد حدثت عنه مفاسد يطول بيانها، وانما يحسن اجمال القول فيها

كان الدين هو الذي ينطلق بالعقل في سعة العلم، ويسيح به في الارض، ويصعد به الى اطباق السماء، ليقف به على أثر من آثار الله ، أو يكشف به سراً من أسراره في خليقته، او يستنبط حكما من أحكام شريعته، فكانت جميع الفنون مسارح للعقول تقتطف من ثمارها ماتشاء، وتبلغ من التمتع بها ماتريد . فلما وقف الدين ، وقعد طلاب اليقين، وقف العلم وسكنت ريحه، ولم يكن ذلك دفعة واحدة ولكنه سار سير التدريج

جناية الجمود على اللغة

اول جناية لهذا الجمود كانت على اللغة العربية وأساليبها وآدابها فان القوم كانوا يعنون بها لحاجة دينهم اليها — أريد حاجتهم في فهم كتابهم إلى معرفة دقائق أساليبها وما تشير اليه هيئة تراكيبها، وكانوا

جناية الجمود على النظام والاجتماع

وأعظم من هذه الجناية جناية التفريق وتمزيق نظام الأمة وإيقاعها فيما وقع فيه من سبقها من الاختلاف وتفرق المذاهب والشيع في الدين. كان اختلاف السلف في الفتيا يرجع الى اختلاف أفهام الافراد، وكل يرجع الى أصل واحد لايختلفون فيه، وهو كتاب الله وما صح من السنة، فلا مذهب ولا شيعة، ولا عصبية تقاوم عصبية، ولو عرف بعضهم صحة مايقول الآخر لاسرع الى موافقته كما صرح به جميعهم، ثم جاء أنصار الجمود فقالوا: يولد مولود في بيت رجل من مذهب امام فلا يجوز له أن ينتقل من مذهب أبيه الى مذهب امام آخر. واذا سألتهم قالوا: «وكلهم من رسول الله ملتمس» لكنه قول باللسان، لا أصل له في الجنان، ثم كانت حروب جدال بين أئمة كل مذهب لو صرفت آلاتها وقواها في تبيين أصول الدين ونشر آدابه وعقائده الصحيحة بين العامة، لكنا اليوم في شأن غير مانحن فيه، يجد المطلع على كتب المختلفين من مطاعن بعضهم في بعض مالا يسمح به أصل من أصول الدين الذي ينتسبون اليه. يضلل بعضهم بعضاً، ويرمي بعضهم بعضا بالبعد عن الدين، وما المطعون فيه بأبعد عن الدين من الطاعن ولكنه الجمود، قد يؤدي الى الجحود

كان الاختلاف في العقائد على نحو الاختلاف في الفتيا، تخاصم

تعالى او كتاب الأم للشافعي رحمه الله تعالى او بعض كتب الامهات في فقه الحنفية كطالب المصحف في بيت الزنديق . تجد جزءا من الكتاب في قطر وجزءه الآخر في قطر آخر ، فاذا اجتمعت لك أجزاء الكتاب وجدت ماعرض عليها من مسخ النساخ حائلا بينك وبين الاستفادة منها .

هذا كله من أثر الجمود وسوء الظن بالله وتوهم أن أبواب فضل الله قد أغلقت في وجوه المتأخرين ، ليرفع بذلك منازل المتقدمين ، وعدم الاعتبار بما ورد في الاخبار من أن المبلغ ربما كان أوعى من السامع(١) وان هذه الامة كالمطر لايدرى أوله خير أو آخره (٢) وقلة الالتفات الى أن ذلك قد أضاع آثار المتقدمين أنفسهم ، ولا حول ولا قوة إلا بالله . لا ريب أن القارىء يحيط بمقدار ضرر هذه الجناية على اللغة ، يكفيه من ذلك أنه اذا تكلم بلغته لغة دينه و كتابه وقومه لايجد من يفهم مايقول ، وأي ضر اعظم من عجز القائل عن أن يصل بمعناه الى العقول ؟

---

(١) يشير الى حديث ابن مسعود عند الترمذي وابن ماجه وهو : سمعت رسول الله (ص) يقول « نضر الله امرأ سمع منى شيئا فبلغه كما سمعه فرب مبلغ أوعى له من سامع » ورواه غيرهما عن غيره

(٢) يشير الى حديث انس عند الترمذي وهو ، قال رسول الله (ص) « مثل امتي مثل المطر لايدري اوله خير أم آخره » ورواه غيره

سنين ، فأين قول هؤلاء « وكلهم من رسول الله ملتمس » ؟ لكن هو جمود المتأخر على رأي من سبقه مباشرة وقصر نظره عليه دون التطلع الى ماوراءه . أو هي السياسة تحـل ماتشاء وتحرم ماتشاء ، وتصحح ماتشاء ، وتعطـل ماتشاء ، والناس منقادون اليهـا بازمة القوة أو الاهواء

جناية الجمود على الشريعة وأهلها

هـذا الجمود في أحكام الشريعة جر الى عسر حمـل الناس على احمالهـا : كانت الشريعة الاسلاميـة أيام كان الاسلام اسلاما سمحة تسع العالم باسره ، وهي اليوم تضيق عن أهلها ، حتى يضطروا إلى أن يتناولوا غيرها وان يلتمسوا حماية حقوقهم فيما لا يرتقي اليها ، وأصبح الاتقياء من حماتها يتخاصمون إلى سواها .

صعب تناول الشريعة على الناس حتى رضوا بجهلها عجزاً عن الوصول إلى علمها ، فلا ترى العارف بها من الناس إلا قليلا لا يعد شيئا اذا نسب الى من لا يعرفها . وهل يتصور من جاهل بشريعة أن يعمل باحكامها ؟ فوقع أغلب العامة في مخالفة شريعتهم بل سقط احترامها من أنفسهم ، لانهم لا يستطيعون ان يطبقوا أعمالهم بمقتضى نصوصها . وأول مانع لهم ضيق الطاقة عن فهمها لصعوبة العبارات وكثرة الاختلاف .

أشخاص في النظر والرأي، وكان كل فريق يأخذ عن الآخر ولا يبالي بمخالفته له في رأيه ، مسجدهم واحد وامامهم واحد وخطيبهم واحد فلما جاء دور الجمود — دور السياسة — أخذ المتخالفون في التنطع وأخذت الصلات تتقطع وامتازت فرق وتألفت شيع كل ذلك على خلاف مايدعو اليه الدين ، وقد بذل قوم وسعهم في تمييز الفرق تمييزاً حقيقيا فما استطاعوا وانما هو تمييز وهمي، وخلاف في أكثر المسائل لفظي. وانما هي الشهوات وضروب السياسات. أشعلت نيران الحرب بين المنتسبين إلى تلك الشيع حتى آل الامر الى هذه الفرقة التي يظن الناظر فيها أنها لادواء لها

قال قائل (١) من عدة سنين : إنه ينبغي أن يعين القضاة في مصر من أهل المذاهب الاربعة لان أصول هذه المذاهب متقاربة وعبارات كتبها مما يسهل على الناظر فيها أن يفهمها وقال : ان الضرورة قاضية بان يأخذ في الاحكام ببعض أقوال من مذهب مالك أو مذهب الشافعي تيسيراً على الناس ودفعا للضرر والفساد : فقام كثير من المتورعين ، يحوقلون ويندبون حظ الدين ، كأن الطالب يطلب شيئا ليس من الدين ،مع انه لم يطلب إلا الدين ، ولم يأت إلا بما يوافق الدين ، وبما كان عليه العمل في اقطار العالم إلى ماقبل عدة

(١) القائل هو الامام الكاتب وله فيه اقتراح رسمي في تقريره الذي وضعه لاصلاح المحاكم الشرعية و بينا مكانته وأدلته في مقدمة ذلك التقرير

الا يأتي شيئا الا ما أتى به شيخه الذي اخذ عنه يداً بيد، ولو أبعد بنظره لوجد قدماء المشايخ قد فعلوه وبالغوا فيه حتى خالفوا من اخذوا عنه في بعض رأيه[1] ثم إذا حاججته في ذلك لم يبعد من رأيه أن يعدك زنديقا ، وانك تدعوه إلى الخروج من دينه ، ولا يدري المسكين انه بذلك يخالف نصوص دينه ، وانه يتهيأ للخروج منه، نعوذ بالله تعالى

كان كلام بيني وبين احد المدرسين في اخذ الطلبة بالنصيحة وتذكيرهم بفضائل الاخلاق وصالح الاعمال، خصوصا عند إلقاء الدروس الفقهية ودروس الحديث والتوحيد ، فقال لي : انه لا فائدة في ذلك قطعاً، وهو تعب في غير طائل. فقلت له : ذلك حق عليك أن تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر، وليس عليك ان يأتمر المأمور ولا ان ينتهي المنهي . فقال : إذا تحققت استحالة المنفعة كان الامر والنهي لغواً .

فانظر كيف اعتقد استحالة الانتفاع بنصحه لبلوغ الفساد من النفوس غايته كما يزعم ؟ ولم ينظر في الوسيلة الى اقتلاع هذا الفساد ، مع ان الدين يدعوه إلى ذلك وهو يعمل كل يوم عمله لتعليم من لا سبيل إلى إصلاحه ، هذا كله لانه لم ير نفسه اهلا لأن يتخذ

(١) تراهم يقولون في الكلام على آية اوحديث انه حجة على اصحابنا ، وتجد مثل هذا في مواضع من شرح النووي على صحيح مسلم وهو الذي تلقبه الشافعية بالشافعي الثاني

سألت يوما أحد المدرسين في بعض المذاهب : هل تبيع وتشتري وتصرف النقود على مقتضى ماتجد في كتب مذهبك فأجاب ان تلك الاحكام قلما تخطر بباله عند المعاملة بالفعل وأنما يفعل مايفعل الناس . هكذا فعل الجمود بأهله ، ولو أرادوا أن تكون للشريعة حياة يحي بها الناس لفعلوا ، ولسهل عليهم وعلى الناس ان يكونوا بها احياء

تعلم ما وصل اليه الناس من فساد الاخلاق والانحراف عن حدود الشريعة لو سألت عن سببه في القرى وصغار المدن لوجدته أحد أمرين : إما فقد العارف بالشريعة والدين وسقوط القرية أو المدينة في جاهلية جهلاء يرجع بعض أهلها الى بعض في معرفة الحلال والحرام وليس المسئول بأعلم من السائل وكلهم جاهلون ، وإما عجز العارف عن تفهيم من يسأله ، لاعتقال لسانه عن حسن التعبير بطريقة تفهمها العامة ، فهو إذا سئل يقرأ كتابا أو يسرد عبارة يصعب على السامع فهمها وعلى المتكلم إفهامها . وذلك للحرج الذي وضع فيه نفسه ، فلا يستطيع التصرف فيما يسمع ولا فيما يعلم . فاذا قلت للعارف : تعلّم من وسائل التعبير ما يقدرك على مخاطبة الطبقات المختلفة من الناس حتى تنفع بعلمك ، واعلُ بنفسك إلى أن تفهم الغرض من قول إمامك فتجد لأصله انطباقا على هذه الحادثة مثلا وإن لم يأت ذكرها بنفسها في قوله او قول من جاء بعده من أتباعه ، قال : سبحان الله : هل فعل ذلك أحد من المشايخ ؟ يريد أن

ولا يجوز الاخذ فيه بالظن ، وان العقل هو ينبوع اليقين في الايمان بالله وعلمه وقدرته والتصديق بالرسالة ، وان النقل ينبوع له فيما بعد ذلك(١) من علم الغيب كاحوال الآخرة وفرض العبادات وهيآتها، وان العقل ان لم يستقل وحده في ادراك مالا بد فيه من النقل فهو مستقل لامحالة في الاعتقاد بوجود الله وبانه يجوز أن يرسل الرسل فتأتينا عنه بالمنقول — نسوا ذلك كله وقالوا : لابد من اتباع مذهب خاص في العقيدة ، وافترقوا فرقا وتمزقوا شيعا كما قلنا ولم يكفهم الالزام باتباع مذهب خاص في نفس المعتقد ، بل ذهب بعضهم إلى انه لابد من الاخذ بدلائل خاصة للوصول إلى ذلك المعتقد فيكون التقليد في الدليل كالتقليد في المدلول ، وكانهم لذلك جعلوا النقل عماداً لكل اعتقاد ويا ليته النقل عن المعصوم ، بل النقل ولو عن غير المعروف ، فتقررت لديهم قاعدة : ان عقيدة كذا صحيحة ، لان كتاب كذا للمصنف فلان يقول ذلك ، ولما كانت الكتب قد تختلف أقوالها صار من الصعب أن يجد الواحد منهم لنفسه عقيدة قارة صافية غير كدرة ولا متزعزعة . وقد سرى ذلك من قراء المقلدين إلى أمييهم

---

(١) يعني ان الاخذ بما جاء به الرسل متوقف بالفعل — وفاقا لنظر العقل — على التصديق بان الله أرسلهم ، فهو لا يكون الا بعده . وهذا قطعي بالنسبة الى من يدعى الى الدين من الكفار والى اقامة الحجة على المنكر ، وأما الناشيء في الاسلام فلا ترتيب عنده في ذلك فهو يأخذ العلم بالله وصفاته وادلتها العقلية من القرآن مباشرة

وسيلة لم يتخذها من اخذ عنه ، او لم يرشده إليها من تعلم هو بين يديه ولم يتذكر عند ذلك شيئا من الاوامر الالهية التي وردت في النصيحة والتآمر بالمعروف والتناهي عن المنكر، وان اليأس من روح الله انما يكون من القوم الكافرين او الضالين

لا بل اذا قلت له : ان هذا الضرب من ضروب التعليم عقيم لا ينتج المطلوب منه، او ان هذا الكتاب الذي تعود الطلاب قراءته قد يضر بقارئيه وغيره أفضل منه .. كاد يظن ان قولك هذا مخالف للدين ، ورأى العدول عما تعوده نوعا من الاخلال بالدين. وقد يقيم عليك حربا يعتقد نفسه فيها مجاهداً في سبيل الله

اذا قلت له : ان دروس السلف كانت تقريراً للمسائل واملاء للحقائق على الطلاب، ولم يكن لاحد منهم كتاب يأخذه بيده ويقرئه تلاميذه ، ولم يكن بأيدي الطلبة إلا الاقلام والقراطيس يكتبون ما يسمعونه من أفواه أساتذتهم. قد يعترف لك بصحة ما تقول ولكنه يستمر في عمله ، اعتماداً على انه وجد الناس هكذا يعملون، فهل يخطر ببال عاقل ان هذا الجمود من الدين ؟ وهل يرتاب من له أدنى ادراك في سوء عقباه على الدين وأهل الدين ؟

جناية الجمود على العقيدة

ذلك جمودهم في العمل ، وأشد ضرراً منه الجمود في العقيدة : نسوا ماجاء في الكتاب وأيدته السنة من ان الايمان يعتمد اليقين ،

الاعمال الجارية في المساجد يوم الجمعة ـ ومنزلة الشيخ من الرياسة في اهل العلم بالدين منزلته ـ فأفتى بما ينطبق على السنة وما يعرفه العارفون بالدين وقال : ان العمل بدعة من البدع يجب التنزه عنها . أتظن ان المستفتي أمكنه العمل بمقتضى الفتيا ؟ كلا . حدث قيل وقال ، وكثرة تسآل ، ودخلت السياسة ثم قيل: ان الزمان ناصر الحقيقة ،وقد وجدنا الامر كذلك من قبلنا . وسكت السائل وماذا يصنع المجيب ؟

نعم هذا من شؤم ذلك الجمود فقد فصل بين العامة ومن يرجى فيهم تقويم ما اعوج منها ووكلت إلى اناس منها لا علم لهم بالدين ولا بالادب وقد غرسوا في اذهان الدهماء شر الغرس ،ولا تجني الامم منه الا اخبث الثمر . فلو قام العالم بالدين وأراد أن يبين حكم الله المصرح به في كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم المجمع عليه عند السلف قاطبة انتصب له ناعر من العامة (١) يصيح في وجهه (ما سمعنا بهذا في آبائنا الاولين) ويريد من آبائه الاولين من رآهم بعد ولادته او ذكرت له أسماؤهم بلسان مضليه حتى صار إرشاد العامة اليوم من اصعب الامور وأشقها على طالبه

ماذا يمكن ان اقول ؟ أصبح الرجل يرتكب في وسائل العبادة أقبح المنكرات في الدين وإذا دُعي الى ترك المنكر نفر وزمجر وأبى واستكبر . انظر ماذا يصنع الموسوسون ومن يقرب منهم في الاستبراء من البول على مرأى من المارة وفيهم النساء والاطفال وهم يظنون

(١) من نعرت الدابة تنعر به بضم العين نعيراً صوتت

فتراهم يعتقدون كل ما يقال وينقل عن معروف الاسم ، وإن لم يكن في حق الامر من اهل العلم ، وتتناقض عقائدهم على حسب تناقض مسموعاتهم

انجر التساهل في الاعتماد على النقل إلى الخروج عما اختطه لنا السلف رضي الله عنهم، فقد كانوا ينقبون عن صفات من ينقلون عنه ، ويمتحنون قوله ، حتى يكونوا على شبه اليقين من انه موضع الثقة . ولكن جمود المتأخر على ما يصل إليه من المتقدم صير النقل فوضى ، فتجد كل شخص يأخذ عمن عرفه وظن أنه أهل للاخذ عنه بدون بحث ولا تنقيب، حتى شاع بين الناس من الاقوال وموضوعات الاحاديث، ما ترتفع الاصوات بالشكاية منه من حين إلى حين . وكل ما تراه من البدع المتجددة فمنشؤه سوء الاعتقاد الذي نشأ من رداءة التقليد، والجمود عند حد ما قال الاول بدون بحث في دليله ولا تحقيق في معرفة حاله، وإهمال العقل في العقائد على خلاف ما يدعو إليه الكتاب المبين والسنة الطاهرة . دخلت على الناس لذلك عقائد يحتاج صاحب الغيرة على الدين في اقتلاعها من أنفسهم إلى عناء طويل ، وجهاد شديد ، وسلاحه الكتاب وسلاح أعدائه أقوال بعض من تقدم من يُعرف ومن لا يُعرف — وما أكثر عدد من ينصر أعداءه اليوم وما اقلهم غدا ان شاء الله

سأل سائل من الاستاذ شيخ الجامع الازهر عن حكم عمل من

عادة صحيحة من العادات التي أورثها دينهم قومهم، فنعم المتعلمون هؤلاء، أكثر الله منهم

وانما أتكلم عن هذا الفريق من المتعلمين في مصر وسورية وسائر بلاد الدولة العثمانية . سماحة الاسلام وسعة حلمه للعلم اباحت للمسلمين ان يرسلوا أولادهم ليأخذوا العلم في المدارس الرسمية وغير الرسمية عن أساتذة فيهم المسلم وغير المسلم، أو عن أساتذة كلهم غير مسلمين، بل في مدارس لم تبن إلا لترويج دين غير الدين الاسلامي وأباحت لغير آباء هؤلاء التلامذة ان يسكتوا وان لا ينكروا عليهم عملهم، مادامت العقيدة سالمة من الهدم او الضعضعة

جمود تلاميذ المدارس الاجنبية

هؤلاء التلاميذ إن كانوا في مدارس أجنبية لا أثر لتعليم الدين الاسلامي فيها، بل ربما يعلم فيها دين آخر فقد يسري إلى عقائدهم شيء من الضعف، وقد تذهب عقائدهم بالمرة وتحتل مكانها عقائد أخرى تناقضها، كما شوهد ذلك مراراً، ولو كان آباؤهم على علم بطرق الاستدلال الاقناعية لعقائد دينهم لدعموا من عقائد أبنائهم وحفظوها من التزلزل او الزوال، وكيف يكون لاولئك الآباء شيء من هذا العلم مع الجمود على طرق قديمة لا يصل إلى فهمها من يتقطع لتعلمها، فضلا عن اولئك المساكين، بل لو كان هناك مرشدون على طريقة

أنهم يتقربون إلى الله بما يفعلون

هـذا هو شأن العامة يرون ماليس بدين دينا ، ويصعب على حفاظ الدين ارشادهم بفضل جمودهم على ماورثوا من ماقنيهم بدون تعقل

فهذا معظم الامة تراه قد تملص من أيدي منذريه. ولوشاؤا لأقبل كل منهم على صاحبه، وهو أيسر شيء على حملة الشريعة ، وما هو إلا ان يرجعوا إلى ماكان عليه النبي ﷺ وأصحابه من سعة الدين وسماحته ، ثم العمل على حفظه وحياته

الجمود ومتعلمو المدارس النظامية

ثم ان الجمود قد أحـدث لنا فريقا آخر وهو فريق المتعلمين على الطرق الجديدة إما في مدارس الحكومات الاسلامية وإما في المدارس الاجنبية داخل بلادهم أو خارجا عنها . لاأتكلم عن هذا الفريق في بلاد القرم أو القوقاس أو سمرقند أوبخارى أو الهند ، فاني لاأعرف كثيراً من أحوالهم ومن رأيته منهم رأيت فيه خيراً وأرجو أن يكون منهم لقومهم ماينتظره الاسلام من العارفين به ، فقد رأيت أفراداً قليلين من هؤلاء تعلموا في البلاد الاوربية ودرسوا العلوم فيها درسا دقيقا، وهم أشد تمسكا بلب الدين الاسلامي وروحه من كثير ممن يدعي الورع والتقوى ولا يسمحون لانفسهم بترك

يلوم المتعلم ويوبخه، ويرميه بالمروق من الدين ، هذا والمتعلم لا يشك في قوة دليله، والجهل بالدين يعتقد أن مايقوله خصمه منه، فينفر من دينه نفرته من الجهل ، ولو قال له قائل : ارجع الى كتب الدين تجد فيها مايسرك وينصرك على نفسك وخصمك، حار لا يدري الى أي كتاب يرجع، ولم يسهل عليه فهم تلك العبارات التي ورثها القوم على مافيها من تشعيث وتعقيد وأبقوها كما ورثوها ، فيعود الى النفور من الدين نفور طالب الفهم مما لايمكنه فهمه

لهذا يعتقد أكثر هؤلاء ان الدين شيء غير مفهوم، بل قد يعده بعضهم خرافة « نعوذ بالله » فيأخذون عنه جانباً، ويتركون عقائده وفضائله وآدابه، ويلتمسون لهم آدابا في غيره، وقلما يجدونها، فتراهم وقد فترت قلوبهم وقصرت هممهم، فلا يطلبون إلا ما تطلبه العامة من كسب معيشة أو علو جاه، ويسلكون الى ذلك أي طريق ولو أضروا بالعامة أو الخاصة « ما دام الشرف محفوظا » فاذا وجد بينهم من يدعي الوطنية أو الغيرة الملية أو نحو ذلك ، فانما ينثر الالفاظ نثراً لا يرجع فيها الى أصل ثابت، ولا الى علم صحيح. ولهذا يطلب المصلحة لبلاده من الوجه الذي يؤدي الى المفسدة، وهو يشعر أو لا يشعر على حسب حاله . ومنهم من يصيح باسم الدين ولا تتحرك نفسه لمعرفة حكم من أحكامه أو درس عقيدة من عقائده، فشأنهم كلام في كلام، ولبئس مايصنعون، ولولا هذا الجمود لوجدوا في كتب دينهم وفي

يسهل فهمها لتيسر لهؤلاء التلامذة أن يهتدوا بهديهم، ولكن الجمود صير كل شيء صعبا وكل أمر غير مستطاع

فهذه جناية من جنايات الجمود على أبناء المسلمين الذين يتعلمون في مدارس أجنبية، يخرجهم من دينهم من حيث لا يشعرون. وباليتهم يستبدلون بالدين رادعا آخر من الادب والحكمة كما يرجو بعض المغرورين الذين لا يعلمون طبائع هذه الامم أو كما يروجه بعض من لا يريد الخير بها، ولكنه ترك أفئدتهم هواء خالية من كل زاجر أو دافع، اللهم إلا زاجراً عن خير أو دافعاً الى شر، فتخذوا إلٰهم هواهم وامامهم شهوتهم، فهلكوا وأهلكوا، ومن هؤلاء ورثة الاغنياء الذين تصبح من شرور وأعمالهم الجرائد كل يوم، فالجهل خير مما يتعلم هؤلاء بدون ريبة، وليت الاسلام لم يرحب صدره لمثل هذا الضرب من التعليم والتعلم

﴿ جمود تلاميذ المدارس الرسمية والاهلية ﴾

أما المتعلمون في مدارس رسمية أو غير رسمية للتعليم الديني فيها شيء من البقية فهؤلاء ينشأون على شيء من المعارف في الفنون المختلفة، وتقرر لهم حقائق في الكون السماوي أو الارضي أو في الاجتماع الانساني، ومن عرف شيئا انطلق لسانه بالخوض فيه، وقد يسمعه متنطع ممن يلبس لباس أهل الدين وهو جامد على ألفاظ سمعها، فلو سمع غيرها أنكره وظنه مخالفا للعقيدة الصحيحة فيأخذ

واما محب جاهل يظن خيراً ويعمل شرا . وهذا الثاني كان أشد نكاية وأعون على الغواية ، وهل تزول هذه العلة ويرجع الاسلام إلى سعته الاولى وكرمه الفياض ؟ وينهض باهله الى ماذخر لهم فيه ؟ ؟

جاء في الكتاب المبين (إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون) ذلك الذكر هو الذكر الحكيم ــ هو القرآن الذي (أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير) هو كما قال (كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون) وعد الله بحفظ هذا الكتاب وقد أنجز وعده ، لم تطل اليه يد عدو مقاتل ، ولا يد محب جاهل ، فبقي كما نزل ، ولا يضره عمل الفريقين في تفسيره وتأويله ، فذلك مما لا يلتصق به ، فهو لا يزال بين دفات المصاحف طاهراً نقيا بريئا من الاختلاف والاضطراب ، وهو إمام المتقين ، ومستودع الدين ، واليه المرجع إذا اشتد الامر ، وعظم الخطب ، وسئمت النفوس من التخبط في الضلالات ، ولا يزال لأشعة نوره نفوذ من تلك الحجب التي أقاموها دونه ولا بد أن تتمزق كلها بأيدي أنصاره . فيتبلج ضياؤه لاعين أوليائه . ان شاء الله تعالى

هذا الضياء كان ولا يزال يلوح لامعه في حنادس الظلم لافراد اختصهم الله بسلامة البصيرة فيهتدون به اليه ويحمدون سراهم ، بما عرفوا من نجاح مسعاهم ، ولكن الذين أطبقت عليهم ظلم البدع وران على قلوبهم ما كسبوا من التحزب للشيع ، وطمست بصائرهم

أقوال حملته ماتبتهج به قلوبهم ، وتطمئن اليه نفوسهم ، ولذاقوا طعم العلم مأدوما بالدين . وتمكنوا من نفع أنفسهم وقومهم ولوجدت منهم طبقة معروفة ، يرجع اليها في سير الامة وسياسة أفكارها وأعمالها الاجتماعية .

الجمود علة تزول

﴿ المقال الخامس لذلك الامام الحكيم ﴾

(وفيه بيان علاج الداء)

تفصيل مضرات هذا الجمود وسيئاته يحتاج إلى كتاب طويل فنكتفي بما أوجزناه في الصفات السابقة · ولكن يبقى الكلام في أنه عارض يمكن زواله ان شاء الله تعالى

قد عرفت من طبيعة الدين الاسلامي بعد عرضها عليك فيما سبق انها تسمو عن أن ينسب اليها هذا المرض الخبيث ـ مرض الجمود على الموجود ـ وكم في الكتاب من آية تنفر من اتباع الآباء مهما عظم أمرهم بدون استعمال العقل فيما كانوا عليه ، ولا حاجة إلى اعادة ذلك .

ثم اننا أشرنا أيضا إلى بعض الاسباب التي جلبت هذا الجمود على المسلمين لا على الاسلام، وان محدثها إما عدو للمسلمين طالب لخفض شأنهم أو لاستعبادهم واستغلال أيديهم لخاصة نفسه

لا تزال الشدائد تنزل بهؤلاء المنتسبين إلى الاسلام ولا تزال القوارع تحل بديارهم حتى يفيقوا [وقد بدؤا يفيقون من سكرتهم] ويفزعوا إلى طلب النجاة ، ويغسلوا قذى المحدثات عن بصائرهم ، وعند ذلك يجدون هذا الكتاب الكريم في انتظارهم ، يعدّ لهم وسائل الخلاص، ويؤيدهم في سبيله بروح القدس ، ويسير بهم إلى منابع العلم، فيغترفون منها ما يشاءون، فيعرفون أنفسهم ويشهدون ما كان قد كمن فيها من قوة ، فيأخذ بعضهم بيد بعض ، ويسيرون إلى المجد غير ناكلين ولا مخذولين

ولهذا اقول: ان الاسلام لن يقف عثرة في سبيل المدنية أبداً، لكنه سيهذبها وينقيها من أوضارها، وستكون المدنية من أقوى أنصاره متى عرفته وعرفها اهله . وهذا الجمود سيزول، وأقوى دليل لك على زواله، بقاء الكتاب شاهدا عليه بسوء حاله، و لطف الله بتقييض أناس للكتاب ينصرونه، ويدعون اليه ويؤيدونه، والحوادث تساعدهم، وسوط عذاب الله النازل بالجامدين ينصرهم

هذا الكتاب المجيد الذي كان يتبعه العلم حيثما سار شرقا وغربا لا بد أن يعود نوره إلى الظهور ، ويمزق حجب هذه الضلالات ، ويرجع إلى موطنه الاول في قلوب المسلمين ويأوي اليها — العلم يتبعه وهو خليله الذي لا يأنس إلا اليه ، ولا يعتمد الا عليه

يقول اولئك الجامدون الخامدون — كما يقول بعض أعداء القرآن :

وفسدت عقولهم بما حشوها من الاباطيل ، وبما عطلوها عن النظر في الدليل ، هؤلاء في عمى عن نوره ، وقلوبهم في أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقر ، يصيحون بأنهم عمي صم ، فلا يرون له سناء ، ولا يسمعون له نداء ، ويعدون ذلك من كمال الايمان به ، ولبئس ما رضوا لأنفسهم من السفه وطيش الحلم وهم يعلمون

هذا حال الجمهور الاعظم ممن يوصفون بأنهم مسلمون ، ويجلبون العار على الاسلام بدخولهم تحت عنوانه ، ويقوون حجج أعدائه في حربه ، بزعمهم الاجتماع تحت لوائه ، وما هم منه في شيء كما قدمنا

هؤلاء لا بد أن يصيبهم ما أصاب الامم قبلهم ، فقد اتبعوا سننهم شبراً بشبر وذراعاً بذراع ، وضيقوا على أنفسهم بدخولهم في جحر الضب الذي دخلوه[1] ومن اتبع سنن قوم استحق الوقوع تحت أحكام سنن الله فيهم ، فلن يخلص مما قضى الله في عذابهم . فقد قص علينا سير الاولين ، وبين لهم ما انزل بهم عند ما انحرفوا عن سننه ، وحادوا عن شرعه ، ونبذوا كتابه وراءهم ظهرياً - أحل بهم الذل ، وضرب عليهم المسكنة ، وأورث غيرهم أرضهم وديارهم ، فهل ينتظر المتبعون سننهم ، السائرون على أثرهم ، أن يصنع الله بهم غير الذي صنع بسابقيهم ؟ وقد قضى بأن تلك سنته ولن تجد لسنته تبديلا ؟

(١) في الكلام اشارة الى حديث « لتتبعن سنن من قبلكم شبراً بشبر وذراعا بذراع حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه » رواه الشيخان وغيرهما

في سبيل التمام والظهور على العقائد الباطلة أعواما ، ثم انحرف به أهله عن سبيله ، وساروا به إلى مايرون ونرى ، ولن ينقضي العالم حتى يتم ذلك الوعد ، ويأخذ الدين بيد العلم ، ويتعاونا معا على تقويم العقل والوجدان ، فيدرك العقل مبلغ قوته ، ويعرف حدود سلطنته فيتصرف فيما آتاه الله تصرف الراشدين ، ويكشف ماممكنه فيه من أسرار العالمين ، حتى إذا غشيته سبحات الجلال وقف خاشعا ، وقفل راجعا ، وأخذ إخذ الراسخين في العلم ، الذين قال فيهم أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (كرم الله وجهه) فيما روي عنه : « هم الذين أغناهم عن اقتحام السدد المضروبة دون الغيوب ، الاقرار بجملة ماجهلوا تفسيره من الغيب المحجوب ، فمدح الله اعترافهم بالعجز عن تناول مالم يحيطوا به علما ، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم البحث عن كنهه رسوخا » واعتبر بعد ذلك بقوله : « فاقتصر على ذلك ولا تقدر عظمة الله سبحانه على قدر عقلك ، فتكون من الهالكين ، هو القادر الذي إذا ارتمت الاوهام لتدرك منقطع (١) قدرته ، وحاول الفكر المبرأ من خطرات الوسواس أن يقع عليه في عميقات غيوب ملكوته ، وتولهت (٢) القلوب اليه لتجري في كيفية صفاته ، وغمضت مداخل العقول في حيث لا تبلغه الصفات لتناول علم ذاته ، ردعها

(١) المنقطع ما ينقطع عنده الشيء وهو آخره (٢) تولهت اشتد عشقها .

ان الزمان قد أقبل على آخره ، وان الساعة أوشكت أن تقوم، وان ماوقع فيه الناس من الفساد ،وما مني به الدين من الكساد ،وما عرض عليه من العلل ،وما نراه فيه من الخلل ، إنما هو اعراض الشيخوخة والهرم ،فلا فائدة في السعي، ولا ثمرة للعمل ،فلا حركة الا الى العدم ولا يصح أن يمتد بصرنا إلا إلى العدم ، ولا أن ننتظر من غاية لاعمالنا سوى العدم (نعوذ بالله)

هؤلاء حفدة الجهل،وأعوان اليأس،يهرفون بما لا يعرفون. ماذا عرفوا من الزمان حتى يعرفوا أنه كاد ينقطع عند نهايته؟ ان الذي مضى بيننا وبين مبدأ الاسلام (أي الهجرة) ألف وثلاثمائة وعشرون عاماً، وانما هي يوم وبعض يوم أو بعض يوم فقط من أيام الله تعالى . وان آيات الله في الكون ــ وان كانت تدل على أن ما مضى على الخليقة يقدر بالدهور الدهارير ــ تشهد بأن ما بقي لهذا النظام العظيم يقصر عن تقديره كل تقدير (فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثا)

ان ما بيننا وبين مبدأ الاسلام لا يزيد عن عمر ستة وعشرين رجلا كل رجل يعيش خمسين سنة فهل يعد مثل ذلك دهراً طويلا بالنسبة إلى دين عام كدين الاسلام ؟ ان زمنا كهذا لا يكفي ــ وقد تبين انه لم يكف ــ لاهتداء الناس كافة بهديه .ولم تقوم القيامة على الدين ولم تقم على شرهم وطمعهم ؟

قد وعد الله بأن يتم نوره وبأن يظهره على الدين كله ، فسار

بينهما ، عين تقع على القريب : وأخرى تمد إلى البعيد، وهي في حاجة إلى كل منهما ولا تنتفع باحداهما حتى يتم لها الانتفاع بالاخرى، فالعلم الصحيح مقوم الوجدان ، والوجدان السليم من أشد أعوان العلم.

والدين الكامل علم وذوق ، عقل وقلب ، برهان واذعان ، فكر ووجدان . فاذا اقتصر دين على أحد الامرين فقد سقطت إحدى قائمتيه ، وهيهات ان يقوم على الاخرى ، وان يتخالف العقل والوجدان حتى يكون الانسان الواحد إنسانين، والوجود الفرد وجودين

قد يدرك عقلك الضرر في عمل ولكنك تعمله طوعا لوجدانك، وربما أيقنت المنفعة في أمر وأعرضت عنه اجابة لدافع من سريرتك، فتقول ان هذا يدل على تخالف العقل والوجدان ، ولكنني أقول: ان هذه حجة من لا يعرف نفسه ولا غيره ، عليك ان ترجع إلى نفسك فتتحقق من أحد الامرين — إما ان يقينك ليس بيقين، وانه صورة عرضت عليك من قول غيرك، فأنت تظنها علما وما هي به، وإما ان وجدانك وهم تمكن فيك، وعادة رسخت في مكان القوة منك، وليس بالوجدان الصحيح ، وانما هو عادة ورثتها عمن حولك وظننتها شعوراً منبعه الغريزة وما هي منه في شيء

لابد أن ينتهي أمر العالم إلى تآخي العلم والدين ، على سنة القرآن والذكر الحكيم ، ويأخذ العالمون بتمني بالحديث الذي

وهي تجوب مهاوي سدف (١) الغيوب متخلصة اليه سبحانه فرجعت إذ جبهت (٢) معترفة بانه لاينال بجور الاعتساف كنه معرفته، ولا تخطر ببال أولي الروايات خاطرة من تقدير جلال عزته» (٣)

هنالك يلتقي (أي العقل) مع الوجدان الصادق (القلب) ولم يكن الوجدان ليدابر العقل في سيره داخل حدود مملكته، متى كان الوجدان سليما، وكان ما استضاء به من نبراس الدين صحيحا، إياك ان تعتقد ما يعتقده بعض السذج من ان فرقا بين العقل والوجدان (القلب) في الوجهة، بمقتضى الفطرة والغريزة، فانما يقع التخالف بينهما مرضا عند عروض العلل والامراض الروحية على النفوس وقد أجمع العقلاء على ان المشاهدات بالحس الباطني (الوجدان او القلب) من مبادىء البرهان العقلي، كوجدانك انك موجود، ووجدانك لسرورك وحزنك وغضبك ولذتك وألمك ونحو ذلك

منحنا العقل للنظر في الغايات، والاسباب والمسببات، والفرق بين البسائط والمركبات — والوجدان لادراك مايحدث في النفس والذات من لذائذ وآلام، وهلع واطمئنان، وشماس واذعان ونحو ذلك مما يذوقه الانسان، ولا يحصيه البيان، فهما عينان للنفس تنظر

(١) السدف جمع سدفة كظلمة لفظا ومعنى (٢) جبهه ضرب جبهته ورده (٣) هذا الكلام فيه من الصنعة وسمات التوليد ما يدل على انه موضوع على علي كرم الله وجهه

حرية العلم فى أوربا الآن

(ونسبتها الى الماضي والحاضر في الاسلام)

وهو المقال السادس لذلك الامام الحكيم

لم يبق علينا من الكلام إلا مايتعلق بالامر الرابع مما ذكرته الجامعة(١) وهو « ان تمكن العلم والفلسفة من التغلب على الاضطهاد المسيحي في أوربا وعدم تمكنهما من التغلب على الاضطهاد الاسلامي دليل واقعي على أن النصرانية كانت أكثر تسامحا مع الفلسفة »

ليس من السهل علي أن أعتقد أن أديباً كصاحب الجامعة يقول هذا القول ـ وهو ناظر الى الحقيقة بكلتا عينيه مع معرفته بلسان الغربيين واطلاعه على ما كتبوا في هذه المسألة وهي من أهم المسائل التاريخية ـ وانما هي عين الرضى تناولت من حاضر الحال ومما انتهى اليه سير التاريخ ماتناولت، ثم أملت على قلبه ماجرى به قلمه

هل يصح أن تسمى الاستكانة للغالب تسامحا ؟ وهل يسمى العجز مع التطلع للنزاع عند القدرة حلما ؟ أم يسمى غل الايدي عن

(١) يذكر القراء ان كلام الجامعة في الطعن بالاسلام كان مبنياً على أربعة أمور، تقدم الرد على ثلاثة منها، وفي هذا المقال الرد على الرابع

صح ، معناه (١) « تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله » ، وعند ذلك يكون الله قد أتم نوره ولو كره الكافرون(٢) وتبعهم الجامدون القانطون ، وليس بينك وبين ما أعدك به إلا الزمان الذي لا بد منه في تنبيه الغافل ، وتعليم الجاهل ، وتوضيح المنهج ، وتقويم الاعوج ، وهو ما تقتضيه السنة الآلهية في التدريج (سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا * انهم يرونه بعيداً ونراه قريبا * إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم) وهو خير الناصرين

(١) قال العراقي في تخريج احاديث الاحياء : رواه ابو نعيم في الحلية مرفوعا باسناد ضعيف . ورواه الاصبهاني في الترغيب والترهيب من وجه آخر أصح منه . ورواه الطبراني في الاوسط والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر ، وقال : هذا اسناد فيه نظر . قلت فيه الوازع بن نافع متروك . وقال الزبيدي في شرح الاحياء : قلت حديث ابن عمر لفظه « تفكروا في آلاء الله ولا تفكروا في الله » هكذا رواه ابن أبي الدنيا في كتاب التفكر وأبو الشيخ في العظمة والطبراني في الاوسط وابن عدي وابن مردويه والبيهقي وضعفه ، والاصبهاني ، وأبو نصر في الابانة وقال غريب . ورواه أبو الشيخ من حديث ابن عباس « تفكروا في الخلق ولا تفكروا في الخالق فانكم لا تقدرون قدره » ورواه ابن النجار والرافعي من حديث أبي هريرة « تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله » الخ . وتعدد هذه الروايات واجتماعها يكسبها قوة والمعنى صحيح كما قال الحافظ السخاوي في المقاصد الحسنة

(٢) الكافر من يرى الدليل فيصد عنه ولا ينظر فيه أو ينظره فيعرف الحق ثم يماري فيه وينكره عنادا . اه من هامش الاصل

من سماء الاندلس، وتبع إشراق تلك الآداب واشتغال الناس بها سطوع نور العلم العربي من الجانب الشرقي كما ذكرنا . وقد وجد هذان النوران استعداداً من النفوس للاستضاءة بهما في السبيل التي تؤدي بهما الى المدنية التي كانا يحملانها . هذا الاستعداد كسبته الانفس بما ضايقها من غلو رؤساء الدين في استعمال سلطانهم، واشتدادهم في استعباد العقل والوجدان حتى ضاق ذرع الفطرة عن الاحتمال ، فأخذ الشعور الانساني يتلمس السبيل الى الخلاص ، واذ لاح له هذان النوران اتخذهما له هداية ، واستقبلهما بوجهه . وكان بعد ذلك ما كان من تأثر الدين لأهل العلم وإحراقهم بالنيران ، ونفيهم من الاوطان ، ومقاومة رؤساء الدين للحكومات ولأهل الافكار المستقلة، في أدنى الاشياء وأعلاها ، حتى انه عند ما شرع ملوك فرنسا في فرش شوارع باريس بالبلاط على الاسلوب الذي وجدوه في مدينة قرطبة ، وصدر الامر بمنع تربية الخنازير في تلك الشوارع ، أغضب ذلك قسوس القديس انطوان . ونادوا بأن خنازير القديس لابد أن تمر في الشوارع على حريتها الاولى ، وحصل لذلك شغب عظيم اضطر الحكومة أن تسمح بذلك مع صدور الامر بأن توضع في أعناقها أجراس . وقالوا ان الملك فيليب السمين مات بسقطة عن فرسه عندما انزعج الفرس من منظر خنزير وصلصلة الجرس في عنقه

لقائل أن يقول : ان القسوس في ذلك الزمان كان يمكنهم،

الشر بوسائل القهر كرها؟ هل تعد مساكنة جناب البابا لملك ايطاليا في مدينة واحدة واجتماع الكرسيين العظيمين: كرسي المملكة الايطالية وكرسي المملكة البابوية - في عاصمة واحدة تسامحاً من قداسة البابا مع الملك؟ أليس الاجدر بالمنصف أن يسمي ذلك تسامحاً من الملك مع البابا، لانه صاحب القوة والجيش والسلطنة، ويمكنه أن يسلب البابا تلك الثمالة التي بقيت له من السلطة الملكية؟ كما ان الاليق به أن يسمي تلك الحالة التي عليها اهل أوربا اليوم من طمأنينة العلم بينهم بجانب الدين - تساهلا من العلم مع الدين، لا تسامحا من الدين مع العلم، بعد ما كان بينهما من الحوادث ما كان، وبعد غلبة العلم واستيلائه على عرش السلطان في جميع الممالك ورضاء الدين بأن يكون تابعا له في اغلبها

اقتباس مدنية أوربا من الاسلام
وأسباب ظهورها العام

السبب الاول : الجمعيات

كان جلاد بين العلم والدين في اوربا وتألفت لنصرة العلم جمعيات وأحزاب، منها ما اتخذ السر حجابا له حتى يقوى. ومنها ما ابتدأ بالمجاهرة. وكان الدين يظفر بالعلم كما سبق بيانه، لكثرة أعوانه وضعف أعوان العلم، حتى اشرقت الآداب المحمدية على تلك البلاد

هذه الطوائف التي تفرقت عقائدها في الاصلاح لم تنتظر إلا أن تأمن عدوها العام، وهو الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، فلما أمنتها أخذ بعضها يصول على بعض، واشتعلت نيران الحروب بينهم. قال احد أفاضل مؤرخيهم «وكلما ارتفعت طائفة منهم إلى عرش القوة، لوثت يديها بالجرائم في العمل لافناء البقية، حتى سئمت النفوس دوام تلك الحال، ووجدت من توالي حوادث الانتقام وظهور مضاره في كل طائفة ان الافضل لكل طائفة ان تمنح الاخرى من الحرية مالا تستغني عنه واحدة منهما، والعلم كان يعمل عمله في كشف الحقائق وترقية الآداب، وكان من أقوى المنبهات إلى مضار الحروب ومفاسد العدوان على حرية الاشخاص، من اي طائفة كانت، من هذا نشأ ذلك الاصل العظيم: أصل التسامح والرضى بمجاورة المخالف في الرأي: نشأ من القهر والقسوة التي كانت كل طائفة تعامل بها الاخرى» انتهى كلام المؤرخ بالمعنى

السبب الثالث الثورة

ولا حاجة بي إلى ذكر ماجاءت به الثورة الفرنسية وكيف كانت قيامتها على الدين ورؤسائه مما هو معلوم، وانما أنبه القاريء إلى الاعتبار بما تقدم من القول، وبما يمكنه ان يقف عليه في كتب القوم، ليعلم ان الدين المسيحي في أوربا لم يحتمل العلم فضلاً وكرماء.

أن يمتنعوا من وضع الاجراس في أعناق الخنازير فرضاهم بذلك يعد تسامحا عظيما مع العلم (او الصناعة)

ويسهل علي ان أوافقه على ان مثل هذا الضرب من التسامح في اجراس الخنازير كان يظهر من حين الى حين، إلا انه فيما أظن لا يكفي في تشييد هذه المدينة التي يفتخر بها الاوربيون اليوم ونحن لا نبخسها قدرها كذلك.

السبب الثاني : الضغط الديني

شدة الحاجة وغلو الرؤساء كانا يوقدان الغيرة في قلوب طلاب العلوم فلم تفتر لهم همة ، فعظم أمرهم واكتشفوا كثيراً من الحقائق التي نفعت العامة ونبهت العقول للاخذ بما يهتدون اليه ، وصارت الحرب بينهم وبين رؤساء الدين سجالا ، إلى ان ظهر دعاة الاصلاح الديني (البروتستانت) فانضم دعاة العلم اليهم ظنا منهم أن سيكونون معهم من المجاهدين في سبيل العلم. وكان منهم (ايراسم) الشهير، فلما انتصر طلاب الاصلاح ودالت لهم دولة استمروا يعاقبون بالموت على الافكار التي تخالف ظاهر مايعتقدون كما تقدم ، فانفصل إيراسم ومن معه من حماة الحرية واستقلال الارادة الشخصية، وترك المصلحين يتفرقون شيعا ويقتل بعضهم بعضاً، وقال : ماكنت أظن ان دعاة الاصلاح يكونون كذلك أعداء العلم

رومانية او بروتستانتية فقدت خاصتها الدينية كما فقدت فائدتها الاجتماعية ـ مانصه مترجما : اذا كان الدين المسيحي ليس شيئا سوى الكثلكة المحتاجة الى الاصلاح (المذهب الروماني) أو الكثلكة التي دخلها الاصلاح بالفعل (المذهب البروتستنتي) فالقرن الموفي للعشرين (القرن الحاضر) لايكون مسيحياً أبدا »

وقد جاء في كلام هذا الخطيب مايصرح بانه يريد أن يطلب للمسيحية معنى آخر ينطبق كل الانطباق على اعتقاد المسلمين فيها ، فان وفق للنجاح في سعيه زال الخلاف — إن شاء الله — بين الدين والعلم ، بل بين المسيحية والاسلام

﴿ عود الى ساحة الاسلام ﴾

آخذ بيد القاريء الآن ، وأرجع به الى مامضى من الزمان ، وأقف به وقفة بين يدي خلفاء بني امية والائمة من بني العباس ووزرائهم ـ والفقهاء والمتكلمون والمحدثون والائمة المجتهدون من حولهم ، والادباء والمؤرخون والاطباء والفلكيون والرياضيون والجغرافيون والطبيعيون وسائر اهل النظر من كل قبيل مطيفون بهم ، وكل مقبل على عمله ، فاذا فرغ عامل من العمل اقبل على اخيه ووضع يده في يده ، يصافح الفقيه المتكلم والمحدث الطبيب والمجتهد الرياضي والحكيم ، وكل يرى في صاحبه عونا على مايشتغل هو به ـ وهكذا أدخل به بيتا من بيوت العلم فاجد جميع هؤلاء سواء في ذلك

وانما قويت عليه أحزاب العلم فساموه استكانة وخضوعا ، ولو شاء أن لايحتمل لم يستطع الى ذلك سبيلا .

السبب الرابع : ترك المسيحية

رؤساء الدين المسيحي رجال ذوو عزيمة واقدام وغيرة على دينهم، قلما يدانيهم فيها رؤساء دين من الاديان ، وهم مع غلوهم في الدين واشتدادهم في استعمال سلطانهم على النفوس، كانوا ولا يزالون يتخذون كل وسيلة لتأييد دينهم، وهم أشد الناس حرصا على تقويم أركانه ودفع الشبه عنه، ولم يزدهم العلم الجديد إلا وسائل وسبلا لترويج عقائده وآدابه ،ولم تفتر لهم همة في نشره وتزيينه للقلوب، ومع ذلك كله نرى ان رجال العلم وحماة المدنية يتسللون منه ، والعامة من الشعوب في تخاذل عنه . والامة الفرنسية ـ التي كانت تدعى بنت الكنيسة ـ أصبحت من أشد الناس عليه ، ورأت فلسفتها أن تحدد حرية اهل الدين في تعاليمهم واجتماعهم : كل ذلك ومدارس اللاهوت لاتزال عامرة، وطلاب اللاهوت يعدون بالالوف ، كل ذلك وكثير من الدول ترى من مزاياها حماية الدين المسيحي في اقطار الارض .

قال احد رؤساء البروتستان ـ في خطبة من خطبه التي ألقاها في بعض البلاد الفرنسية سنة ١٩٠١، بعد كلام له في أن المسيحية

الخلفاء أئمة في الدين مجتهدون وبأيديهم القوة وتحت أمرهم الجيش، والفقهاء والمحدثون والمتكلمون، والأئمة المجتهدون الآخرون هم قادة اهل الدين ومن جند الخلفاء، الدين في قوته والعقيدة في أوج سلطانها، وسائر العلماء ممن ذكرنا بعدهم يتمتعون في أكنافهم بالخير والسعادة ورفه العيش وحرية الفكر، لا فرق في ذلك بين من كان من دينهم ومن كان من دين آخر، فهنالك يشير القارىء المنصف إلى اولئك المسلمين، وأنصار ذلك الدين، ويقول: ههنا يطلق اسم التسامح مع العلم في حقيقته، ههنا يوصف الدين بالكرم والحلم، ههنا يعرف كيف يتفق الدين مع المدنية، عن هؤلاء العلماء الحكماء تؤخذ فنون الحرية في النظر، ومنهم تهبط روح المسالمة بين العقل والوجدان (او بين العقل والقلب كما يقولون)

يرى القارىء انه لم يكن جلاد بين العلم والدين. وانما كان بين أهل العلم وبين اهل الدين شيء من التخالف في الآراء، شأن الاحرار في الافكار الذين أطلقوا من غل التقييد، وعوفوا من علة التقليد، ولم يكن يجري فيما بينهم اللمز والتنابز بالالقاب، فلا يقول أحد منهم لآخر انه زنديق أو كافر او مبتدع، او مايشبه ذلك. ولا تتناول أحداً منهم يد باذى، الا إذا خرج عن نظام الجماعة، وطلب الاخلال بأمن العامة، فكان كالعضو المجذوم فيقطع ليذهب ضرره عن البدن كله

البيت يتحادثون ويتباحثون، والامام البخاري حافظ السنة بين يدي عمران بن حطان الخارجي يأخذ عنه الحديث، وعمرو بن عبيد رئيس المعتزلة بين يدي الحسن البصري شيخ السنة من التابعين يتلقى عنه، وقد سئل الحسن عنه فقال للسائل « لقد سألت عن رجل كأن الملائكة أدبته، وكأن الانبياء ربته، ان قام بامر قعد به، وان قعد بأمر قام به، وان أمر بشيء كان ألزم الناس له، وان نهى عن شيء كان أترك الناس له، ما رأيت ظاهراً أشبه بباطن منه، ولا باطنا أشبه بظاهر منه »

بل أرفع بصري فأجد الامام أبا حنيفه أمام الامام زيد بن علي (صاحب مذهب الزيدية من الشيعة) يتعلم منه أصول العقائد والفقه، ولا يجد أحدهم من الآخر الا ما يجد صاحب الرأي في حادثة ممن ينازعه فيه اجتهاداً في بيان المصلحة، وهما من أهل بيت واحد - أمر به بين تلك الصفوف التي كانت تختلف وجهتها في الطلب وغايتها واحدة وهي العلم، وعقيدة كل واحد منهم أن فكر ساعة خير من عبادة ستين سنة كما ورد في بعض الاحاديث (١)

(١) رواه أبو الشيخ ابن حبان في العظمة عن أبي هريرة بسند ضعيف، ورواه من طريقه ابن الجوزي في الموضوعات ولكن له روايات أخرى منها رواية الديلمي في مسند الفردوس عن انس بلفظ (ثمانين سنة) وفي رواية موقوفة على ابن عباس « خير من قيام ليلة » ولشهرة هذا المعنى قال الغزالي : وردت السنة بكذا

لا أكاد أخطيء القاريء اذا زعم ان المسلم انما استفاد اسم زندقة وتزندق ومتزندق وزنديق من فضل ما علمه جيرانه اذ كانوا يقولون : هرتقه وتهرتق وهو هرتوقي : أو ما يماثل ذلك — أو زعم أن قد فشت في المسلمين سرعة التكفير بطريق العدوى من أهل الملل المتشددة . وان الذي سهل سريان العدوى بتلك السرعة الشديدة هو ضعف المزاج الديني عند المسلمين بجهلهم بأصوله ومقوماته، ومتى ضعف المزاج استعد لقبول المرض كما هو معلوم

إن المسلمين لما كانوا علماء في دينهم كانوا علماء الكون وأئمة العالم ، أصيبوا بمرض الجهل بدينهم فانهزموا من الوجود وأصبحوا أكلة الآكل ، وطعمة الطاعم ، هل وقف الجهل بالمسلمين عند تكفير من يخالفهم في مسائل الدين أو يذهب مذهب الفلاسفة أو ما يقرب من ذلك ؟ لا، بل عدا بهم الجهل على أئمة الدين، وخدمة السنة والكتاب، فقد حملت كتب الامام الغزالي الى غرناطة وبعد ما انتفع بها المسلمون أزمانا هاج الجهل بأهل تلك المدينة وانطلقت ألسنة المتعالمين من البربر بتفسيقه وتضليله ، فجمعت تلك الكتب خصوصاً نسخ « احياء علوم الدين » ووضعت في الشارع العام في المدينة وأحرقت . قال قوم يعدون أنفسهم مسلمين في ابن تيمية — وهو أعلم الناس بالسنة وأشدهم غيرة على الدين — : انه ضال مضل . وجاء على أثر هؤلاء مقلدون يملأون أفواههم بهذه الشتائم وعليهم إثمها وإثم من يقفوهم بها الى يوم القيامة

ملازمة العلم للدين

(وعدوى التعصب في المسلمين)

متى ولع المسلمون بالتكفير والتفسيق ورمي زيد بأنه مبتدع وعمرو بأنه زنديق ؟

أشرنا فيما سبق الى مبدإ هذا المرض ، ونقول الآن : ان ذلك بدأ فيهم عند ما بدأ الضعف في الدين يظهر بينهم ، وأكلت الفتن أهل البصيرة من أهله — تلك الفتن التي كان يثيرها أعداء الدين في الشرق وفي الغرب لخفض سلطانه ، وتوهين أركانه — وتصدّر للقول في الدين برأيه من لم تمتزج روحه بروح الدين ، وأخذ المسلمون يظنون أن من البدع في الدين مايحسن احداثه لتعظيم شأنه تقليداً لمن كان بين أيديهم من الامم المسيحية وغيرها . وأنشأوا ينسون ماضي الدين ومقالات سلفهم فيه ، ويكتفون برأي من يرونه من المتصدرين المتعالمين ، وتولى شؤون المسلمين جهالهم ، وقام بارشادهم في الاغلب ضلالهم ، في أثناء ذلك حدث الغلو في الدين ، واستعرت نيران العداوات بين النظار فيه ، وسهل على كل منه لجهله بدينه أن يرمي الآخر بالمروق منه لأدنى سبب ، وكلما ازدادوا جهلا بدينهم ازدادوا غلواً فيه بالباطل ودخل العلم والفكر والنظر (وهي لوازم الدين الاسلامي) في جملة ما كرهوه ، وانقلب عندهم ما كان واجباً من الدين محظوراً فيه

إلا بطريق المصادفة وحسن الاتفاق ؟ وهل يليق بأمة تدعي انها على دين ، وان لها فيه سلفا ، أن تهجر آثار سلفها ، وتدع ما كتبوا طعمة للعث وفراشا للتراب ؟ هل وقع مثل ذلك من المشتغلين باللاهوت المسيحي في زمن من الأزمان ؟

إن حالة طلبة العلوم الدينية الاسلامية أصبحت مما يرثى له في اكثر بلاد المسلمين ، فهم لا يقرؤن من كتب الكلام إلا مختصرات مما كتب المتأخرون . يتعلم أذكاهم منها ما تدل عليه عباراتها ، ولا يستطيع أن يتعلم البحث في أدلتها ، وتصحيح مقدماتها ، وتمييز صحيحها من باطلها ، وإنما يتلقاها كأنها كتاب الله أو كلام نبيه صلى الله عليه وآله وسلم يأخذ ما فيها بالتسليم . فاذا ناظره مناظر في بعض قضاياها وعجز عن تصحيحه قطع الجدال بقوله : هكذا قالوا . وان لم يكن القول متفقا عليه . بل قد يكون القول مما لم يقل به سوى صاحب الكتاب الذي اشتغل به ، وربما كان صاحب الكتاب ممن لو رآه أحد من السلف لم يرضه تلميذاً يعي عنه ما يقول (١)

كاد ينقطع طلب العلوم الدينية في سورية والحجاز وتونس والجزائر ، وقلّ جداً في المغرب الاقصى ، ولم يبق الاهتمام به إلا

١) بل هذه الكتب الكلامية لا يوجد فيها بيان مذهب السلف الذي أثبته المحدثون بالروايات الصحيحة وما ينقل فيها عن تفويض السلف في الصفات والمتشابهات غير سديد

اهمال آثار السلف

وحال علوم الدين وطلابها

أهمل المسلمون علوم دينهم ، والنظر في أقوال سلفهم، حتى انك لا تجد اليوم في أيديهم كتابا من كتب أبي الحسن الاشعري ولا أبي منصور الماتريدي ، ولا تكاد ترى مؤلفا من مؤلفات أبي بكر الباقلاني أو أبي اسحاق الاسفرايني، وإذا بحثت عن كتب هؤلاء الأئمة في مكاتب المسلمين أعياك البحث ، ولا تكاد تجد نسخة صحيحة من كتاب

كتب على القرآن تفاسير كثيرة في القرن الثالث من الهجرة وما بعده إلى السادس . منها تفسير الطبري وتفسير أبي مسلم الاصفهاني وتفسير القرطبي وتفسير الجصاص وتفسير الغزالي وتفسير أبي بكر ابن العربي وكثير غيرها [1] وفيها من آراء أولئك الائمة ووجوه استنباط الحكم والاحكام ما لاغنى لطالب علم الدين عنه، فهل يجد الباحث المجد نسخة من هذه الكتب الجليلة يمكن الوثوق بصحتها

(١) قد طبع بعد وفاة الاستاذ رحمه الله تفسيري الجصاص الحنفي وابن العربي المالكي وكلاهما خاص باحكام القرآن الفقهية ومن أنفس ما الف فيها انصار المذاهب وتفسير الطبري خير منها كما أن كتب ابن تيمية في العقائد خير من كتب أولئك انظار كلهم

متابعة العلم للاسلام ومباينته لسواه

الحق أقول ـ والحس يؤيدني : ما عادوا العلم ولا العلم عاداهم إلا من يوم انحرافهم عن دينهم ، وأخذهم في الصد عن عامه ، فكلما بعد عنهم علم الدين بعد عنهم علم الدنيا وحرموا ثمار العقل . وكانوا كلما توسعوا في العلوم الدينية ، توسعوا في العلوم الكونية ، وضربوا الزمان بسوط من العزة ، واماغيرهم فكلما اتصلوا بالدين وجدّوا في المحافظة عليه أنكرهم العلم وتجهمهم واكفهر وجهه للقائهم ، وكلما بعدوا من الدين سالمهم العلم وبشّ في وجوههم . ولذلك يصرحون بان العلم من ثمار العقل ، والعقل لا يصح ان يكون له في الدين عمل ، ولا ان يظهر منه فيه أثر ، والدين من وجدانات القلب ، ولا علاقة بين مايجد القلب وما يكسب العقل . فالفصل تام بين العقل والدين ، ولا سبيل إلى الجمع بينهما : سامحهم الله فيما يسمونه تسامحا مع العلم ، وهم يصرحون بانه عدوه الذي يستحيل ان يكون بينه وبينه سلم .

هل عرفت السبب في اضطهاد المسلمين للعلم ؟ أقول « اضطهاد » ولا أريد به ما كان عند الامم المسيحية من الاشتداد في إبادة أهله والتنكيل بهم ، واختراع ضروب التعذيب ، والتفنن في صنع آلات الهلاك ، مع الاخذ بالشبهة ، والاكتفاء في الاعدام بمجرد التهمة ، فان ذلك لم يقع عند المسلمين لأيام علمهم ، ولا في أزمنة جهلهم ،

في بعض الصحارى ، وذلك إما لصعوبة طرق التعليم ، واقتضائها الزمن الطويل — وحاجات الناس مانعة لهم من إفناء أعمارهم في عمل لا يسد من حاجتهم — وإما لتفضيل الآباء تربية أبنائهم على الطرق الحديثة في اوربا أو في المدارس الاخرى وليس فيها من الدين شيء ، وان كان فيها شيء منه فهو مما لا يعد تعليما دينيا ينظر اليه — وإما للفتور والخمود ، الذي نشأ عن التقليد والجمود . وبذلك تجد المسلمين قد تولاهم الجهل بدينهم ، وأخذتهم البدع من جميع جوانبهم ، وانقطعت الصلة الحقيقية بينهم وبين سلفهم ، حتى لو عرض على الجمهور الاعظم منهم ما اتفق عليه السلف من الاحكام لانكروه واستغربوه وعدوه بدعة في الدين . وصح فيهم ما قال عمر الخيام في بعض أشعاره الفارسية مخاطبا للنبي عليه الصلاة والسلام « ان الذين جاؤا بعدك زينوا لك دينك ووشوه وزركشوه حتى لو رأيته أنت لانكرته »

فهذا الصنف من المسلمين — وهو معظمهم — قد أنكر دينه الحق وعاداه ، ونقم على اهله القائمين بخدمته ، وانما اصطفى لاعتقاده بعض أفراد لم يعرف عن السلف اختصاصهم بالثقة ، ولم يسمح الدين باختصاصهم بالتقليد ، فاذا وقع من هذا الصنف ما فيه أذى للعلم وأهله ، فهل يعد ذلك واقعا من دين الاسلام — دين محمد صلى الله عليه وسلم — دين القرآن — دين السنة الثابتة — دين الخلفاء الراشدين ، ومن تبعهم من السلف الاولين ؟؟

تشعر السياسة (نعوذ بالله منها) بما عسى أن يكون من أمرهم فتخمد أنفاسهم ، قبل أن يلقوا من قلب أحد ما أرادوا من غرس أفكارهم ، فينطفيء النور ، ويدلهم الديجور

فهل يعد الاديب هذه الضربات من أيدي أرباب السياسة اضطهادا للعلم لاجل حماية الدين ؟ أنزه كل أديب عن أن يظن ذلك ، وانما هي صدمات تقع على الدين لا تختلف عن أمثالها مما يصيبه منهم مباشرة ، فلا تعد حجة على الدين في نظر المنصف

المقلِّد دون المقلَّد

ربما يقول القائل: إن كان المسلمون قد أخذوا الجمود في التقليد والنفرة من العلم والاعتقاد بالعداوة بين الدنيا والآخرة وبين العقل والدين وما أشبه ذلك مما هم فيه ، وورثوه عن الامم السابقة عليهم خصوصاً أقرب الملل اليهم . فما بالهم لم يقلدوا المسيحيين في الحرص على نشر دينهم ، والتوسع في علومه مذيلا بما أخذوه عنهم ، ولم يقسموا أنفسهم قسمين كما قسم المسيحيون اخوانهم قسمين : قسما ينقطع الى الآخرة في الاديار والصوامع ، وقسما يشتغل بالدنيا ليقيت نفسه ويقيت أهل القسم الاول ، ويحمي نفسه ويحميهم من العدوان ؟ وما لك ترى المسلمين خملوا وارتخت اعصابهم ، وسئموا النظر في علوم دينهم كما ذكرت ، ثم صاروا أبعد الناس عن معرفة الطرق لتحصيل الغنى والثروة ، والقبض على ناصية القوة وصولجان العزة ؟

ولكن أريد من الاضطهاد الاعراض عن العلم ، ورمي الالفاظ السخيفة في وجوه أهله ، وقذفهم بشيء من الشتائم مع الابتعاد عنهم .

لاريب انك قد أيقنت بان السبب في هذا الذي يسميه الاديب اضطهاداً — انما هو جهلهم بدينهم . فالدواء الذي ينجع في شفائهم من هذا الداء لايكون إلا ردهم الى العلم بدينهم ، واستبصر فيه بالوقوف على أسراره والوصول الى حقيقة ما يدعو اليه ، كان الدين واسطة التعارف بينهم وبين العلم ، فلما ذهبت الواسطة تناكرت النفوس وتبدل الانس وحشة

الدعاة في الاسلام

فهل قام بينهم دعاة للعلم حقيقيون ، أو دعاة لأصل الدين عارفون ، ثم استعصت قلوب المسلمين عليهم ، وجمحت نفوسهم عن الانقياد لهم ؟ وهل كثر أولئك الدعاة في أطراف بلاد المسلمين كثرتهم في أوربا من أواسط القرن السابع عشر من التاريخ المسيحي (١) الى أن ظهرت قوة العلم في أوائل القرن السابع عشر وفيما بعد ذلك ؟ لا . انما رأينا من الصادقين أفراداً يظهرون متفرقين في عصور مختلفة ربما لا يجتمع أربعة منهم — فما يزيد — في قرن واحد ، ويأخذون في العمل لما وجهوا اليه ، ثم لايكادون ينطقون ببعض الكلم ، فيحس الناس بهم ، فيأخذ المستعد أهبته لمفارقة ما كان عليه واتباعهم ، حتى

١) كذا في الاصل المطبوع على عهد المؤلف ولعله القرن الرابع عشر

من البلاد في هذه الايام ؟ كل يقول: ديني ملتي ، اسلام مسلمون ، قرآن سنة ، مجد الاسلام القديم ، سلفه الصالحون ، تعلم ، تعليم ، كتب قديمة كتب جديدة ، وما يشا كل ذلك مما يظهر منه أن الداعين الى العلم او المنبهين الى الاخذ باصول الدين الاسلامي كثيرون ، ولا نرى مع ذلك من أغلب المسلمين الا آذانا صما وأعينا عميا ، وصدا عما يدعو اليه هؤلاء ؟

ويمكنني أن أقول له : ان الصادق في هؤلاء ليس بكثير عدده ، والجمهور منهم قلما يخلص قصده ، وما تجد أكثرهم الا متجرين بهذه الكلمات ، لكسب بعض دريهمات ، ويظهر لك ذلك من أنهم يلفظون هذه الاسماء وقلما يدرسون شيئا من مدلولاتها ليقفوا على الحقيقة منه ، وانما يلقف بعضهم عن بعض ظواهر كالزبد لاتمكث في الارض . وأما الصادقون على قلتهم فقد بدأ بعض الناس يسمعون مايقولون ، ويطلبون الرشاد مما يعلمون ، خصوصا في أمر الدين والجمع بينه وبين مصالح الدنيا ، ولا سيما في بلاد الهند وبين مسلمي روسيا . ولكن الاصلاح ليس ريحا تهب فتمسح الارض من الشرق إلى الغرب في وقت قريب فانتظر (١)

---

١) قد كثر بعد كتابة الامام هذا تأثير دعوة الاصلاح في القطر المصري وغيره بنبذ الخرافات والرجوع الى مذهب السلف حتى في الازهر رغم أنوف بعض اكابر شيوخه ولكن لما ينتظم عقد المصلحين فيكونوا أولي قوة يغلبون بها المفاسد الخرافية والاباحية ، وقد اجاب الامام عن السؤال الذي أورده عن سبب هذا بما ترى

وطرحوا انفسهم في تيار من القدر كما يقولون، يجري بهم الى حيث لا يعلمون ؟ ثم هم مع ذلك أحرص الناس على حياة ، وأشدهم لهفا على الحطام ، فلا ترى الجمهور منهم في شيء الدين ولا الدنيا فما هذا التناقض ؟

فأقول له : انك قد نسيت ان المقلد يكون دائما أحط حالا وأخس منزلة من المقلد . فالمقلد انما ينظر من عمل المقلد إلى ظاهره ولا يدري سره ولا مابني عليه . فهو يعمل على غير نظام ، ويأخذ الامر لا على قاعدة ، ولذلك سقط المسلمون في شر مما كان عليه مقلدوهم، لاسيما أنهم قد خلطوا في التقليد وأضافوا الى دينهم مالا يمكن أن يتفق معه ، فصاروا في مثل حال المتخبط الذي تنازعه عدة قوى يذهب مع كل منها آنا ثم ينتهي أمره بعد الخيبة بالتعب الشديد ، فيستاقي الى أن يستريح، فينهض إلى العمل على هدى أو يموت.

لما كان المسلمون علماء كانت لهم عينان: عين تنظر إلى الدنيا والاخرى تنظر إلى الآخرة، فلما طفقوا يقلدون أغمضوا إحدى العينين، وأقذوا الاخرى بما هو أجنبي عنهم، ففقدوا المطلبين ، وان يجدوهما إلا بفتح ما أغمضوا ، وتطهير ما أقذوا

الاصلاح والمصلحون

للقائل أن يقول : كيف تدعي أن دعاة العلم والدين قليل بين المسلمين مع اننا نسمع أصواتهم تتلاقى في جو مصر وسورية وغيرهما؟

الفرق بين التعصبين

وعلى كل حال لايجوز في شريعة الانصاف أن يذكر المسلمون في جانب جمهور المسيحيين اذا ذكر الغلو في التعصب الديني فضلا عن أن يقال ان المسلمين أشد افراطا فيه . والشاهد يدلنا على انه قد يكون للمسلمين في التعصب ألفاظ وكلمات ، ولكن الذي يكون من جمهور المسيحيين انما هو أعمال وضربات في المعاملات ، وما على طالب الحقيقة إلا ان يسيح بفكره في مثل المستعمرات الهولاندية في الشرق . ومما كلن الترنسفال قبل سقوطها ، وبلاد الناتال في الجنوب ، ثم يرجع إلى بعض بلاد الروسيا في الشمال من قبل عشرين سنة ، ثم يرجع إلى الجزائر وما يليها في جهة الغرب ، ليعلم كيف تكون الشدة في المعاملة مع غير أهل المذاهب المسيحية ، وكيف يبلغ التعصب من أهله حداً تنظر اليهم فيه الانسانية شزراً ، ولا تقبل لهم فيه المدنية عذراً

ماعلى الباحث إلا ان ينظر فيما يكتبه الكتاب الفرنسيون ليعلم انهم في حيرة من أمرهم مع المسلمين ، يريدون أن تكون لحكومتهم طمأنينة فيما ملكت من بلاد المسلمين ولكن حكومتهم لاتجد السبيل اليها مع ما اتخذته قاعدة لعملها وهو الشدة والافراط في القسوة على المسلمين خاصة وحدهم دون سواهم ، وأرباب الاقلام يبحثون عن

قد يقول القائل : لم لم يكثر هؤلاء كثرتهم بين الاوربيين فيما مضى، حتى يغلبوا الظالمين من أهل السياسة ويستميلوا العادلين منهم اليهم ، وينهضوا بالمسلمين من هذه الرقدة التي طال أمدها عليهم ؟ ولم لايزال أهل البصيرة منهم قليلين متفرقين يهمسون بالقول ولا يجهرون ، وليس للعلم فيهم دعاة عمليون ؟ أليس ذلك سبيلا لمؤاخذة الاسلام وحجة عليه ؟

واقول له : ان حظ المسلمين لايصح ان يكون أسعد من حظ مقلديهم ، بل المنتظر ان يكون أتعس ، وقد أقامت المسيحية مايزيد على ألف سنة قبل ان يظهر فيها العلم ، أو تنشأ الحرية الشخصيه ، او تسري فيها الحركة العلمية ، إلى ما فيه صلاح الجمعية الانسانية ، مع توالي المنبهات ، وتواصل الصدمات إثر الصدمات، ولم يمض على المسلمين من يوم استحكمت فيهم البدعة ، وأطبقت عليهم ظلم المحدثات ، ودخلوا جحر الضب الذي دخله من كان قبلهم إلا أقل من ثمانمائة سنة ، فلم يمض عليهم وهم في بدعهم الجديد ، ذلك الزمن الذي قد يكون عمراً لمثل هذه الحالة ، ثم تقضي نحبها في آخره . وما أظن ان يمر على المسلمين مثل تلك المدة قبل ان يبلغوا من صلاح الدين والدنيا ماهم أهل له

رأي هانوتو الاخير

(في معاملة المسلمين)

موسيو هانوتو أطلق نقامه من سنوات أن يجري في البحث عن طريقة حكم للمسلمين ، وقاعدة لمعاملتهم في البلاد التي يحكمها الفرنسيون ، وجاء في فصول مقاله بما لا يزال يذكره القراء(١) ثم بعد أن قتل المسألة علما ثلاث سنين ، ورأى سوء تأثير قوله في المسلمين ، رجع الى موضوع البحث هذه السنة بلسان غير الذي كان ينطق به ، ورأي غير الذي كان يصدر عنه . واني ذاكر ملخص ما نقلته الجرائد من خطابه الذي ألقاه في المجمع الجغرافي في شهر مارس من هذه السنة [١٩٠٢م] متعلقا بافريقيا، وأقتصر منه على ما يتعلق بما نحن فيه، وهو بالمعنى :

« ان القواعد الجديدة التي يجب أن يكون عليها العمل في افريقية هي مخالفة القواعد القديمة التي كانت تجري عليها السياسة الاستعمارية فيما مضى من الزمان » (أي قبل ساعة وقوف الخطيب لإلقاء خطابه) ثم بين هذه القواعد الجديدة التي يعامل بها المحكومون فقال «انها الأمن والسلم» ثم قال « اننا مدينون لهم بالعدل

١)هو أنه طعن في بعض عقائد الاسلام فرد عليه الاستاذ الامام كاتب هذا رداً دمغ به جهله بالأديان والتاريخ فرجع عنه واعتذر

تلك الطمأنينة مع المحافظة على تلك القسوة ، ويأبى الله أن يعثرهم على مايبحثون عنه ، لأنهم يطلبون الجمع بين الضدين في موضوع واحد وهو محال كما يقرره فلاسفتهم (١)

١) آخر مااستقر عليه رأيهم فشرعت دولتهم في تنفيذه هو اخراج المسلمين من دينهم ولغتهم (العربية) بكل ما يمكن من وسائل العلم والتعليم والاكراه والاجبار وعدم تمكينهم مع ذلك من تعلم العلوم الطبيعية والاجتماعية والقانونية لئلا يطالبوا بالاستقلال الوطني أو المالي ، وقد أكرهوا سلطان المغرب الأقصى على توقيع ظهير (مرسوم) يخول الحكومة الفرنسية الحامية له تنفيذ ذلك في شعب البربر ، فأنشأت لهم قانوناً بربريا بعيداً عن الشريعة الاسلامية بعد الكفر عن الايمان في الاحكام الزوجية والارث وغير ذلك ، ومدارس تعلمهم مبادئ النصرانية باللغة الفرنسية ، واللغة البربرية بالحروف اللاتينية ، وتحرم عليهم تعلم اللغة العربية والديانة الاسلامية ، حتى إذا ماتم لها إخراج البربر من الاسلام ، وهم يزيدون على ثلثي السكان اكرهت العرب على ذلك ومن أبى تطرده من البلاد . وأما إيطالية الكاثوليكية الموالية للبابا فهي تحاول استئصال المسلمين من قطر طرابلس الغرب وبرقة وجعل بقايا أطفالهم إيطاليين كاثوليكيين بالقوة القاهرة تنكيلا وتقتيلا ! ! (والله أشد بأسا وأشد تنكيلا)

ترى هانوتو يرشد أهله الى اتخاذ سبيل جديدة في سياسة المسلمين، وهذا الجديد هو السلم والأمن والتساهل مع المسلمين في أن يستمروا مسلمين ، واحترام حقوقهم ، وتركهم يعملون بدينهم وعد هذا مبدأ جديداً لم يسبق الجري على مثله . وهل تجيب الحكومة الفرنسية طلبه ؟ مسألة فيها نظر (١) فهل يليق بمنصف أن يذكر المسلم اذا ذكر التعصب مادام في الكون مثل هذه الدرجة منه؟

(سياسة الانجليز في التسامح)

نعم نحن لا ننكر أن بين الأمم الاوربية أمة تعرف كيف تحكم من ليس على دينها وتعرف كيف تحترم عقائد من تسوسهم وعوائدهم وهي الامة الانجليزية ، فهي وحدها الأمة المسيحية التي تقدر التسامح حق قدره، ولا يصعب علينا أن نقول : ان منشأ ذلك أن أمراءها في الحروب الصليبية وقواد جيشها كانوا من أشد الصليبيين علاقة بسلطان المسلمين وأمراء جيشه، وقد امتاز الانكليز في ذلك الزمن المظلم بدرس عقائد المسلمين وعاداتهم فحملوا من ذلك شيئاً كثيراً الى بلادهم، ولم تحجبهم غشاوة التعصب عن إبصار ضوء الحق وظهر أثر ذلك في كثير من كتابهم مثل (والتر سكوت) و (شيل)

١) ذهب وقت النظر، واعقبه دور العمل وعلم أنها لم تجبه بل أغرت رجال النصرانية ودعاتها بأقبح الطعن في الاسلام وشرعت هي في محوه من بلاد المغرب كلها ويرد الله كيدها في نحرها

والسلم كما اننا مدينون لهم بالتساهل الديني ، ولست أشير الى هذا الموضوع الخطير الذي له علاقة بكل مايثير النفس البشرية إلا اشارة خفيفة فأقول : ان التمدن الاوربي يجد في طريقه في افريقيا لا سيما في شمالها ذلك الدين القديم العظيم الذي هو دين الاسلام ، والذي هو في هذه الجهات (شمال افريقية) أكثر نشاطا منه في غيرها . وهذا الدين يدعو الى إله واحد ، ويجعل الايمان بالتوحيد مصدراً لكل الفضائل الذاتية والاجتماعية ، ويستولي على المؤمن استيلاء شديدا ، فلا يعود يقدر على التفلت منه . فمن المفروض علينا التساهل في هذا الشأن ، بل ليس التساهل بكاف وحده ، فمن الواجب أن ندرس هذا الدين ونبذل جهدنا في فهمه . وعلينا أن نتخذ الكلمة الاسلامية (لا اكراه في الدين) شعارا لا نخرج عن حدود معناها . وأن نحترم الدين الاسلامي ونحميه من كل طاريء سوء . ولا بأس بذكر كلمة للامير عبد القادر الجزائري في هذا المقام وهي : ان أصحاب الاديان الثلاثة يشبهون ثلاثة اخوة من ثلاث أمهات » اه محصل كلام هانوتو

قبل الكلام عليه أسأل القاريء : هل سمع مثل هذه الكلمة ممن يماثل الامير عبد القادر - في نسبه الى صاحب الرسالة ومقامه في أهل دينه ومكانته من سلامة العقيدة - في مذهبه ؟ أو سمع ما يقرب منها ممن لا يدانيه من أهل الملل الاخرى

خاتمة

فان قال قائل: أليس لهذا المقال من آخر ؟ أليس في طول الكلام مجلبة الملل، ونرويج الكسل ؟ قلت: إني أوجه كلامي هذا الى أهل النهم الى الفهم، وأرباب الشره الى المعرفة، ولا أظن هؤلاء إلا طالبين ماهو أوسع من هذا المقال وأطول منه أضعافا مضاعفة، لان الموضوع جليل، والكلام فيه مهما كثر قليل، وأما القاريء الملول، فعقله مدخول، وعزمه مفلول، وفكره مغلول، وهو قصير الهمة فيما يقصر وفيما يطول، فلا ينظر اليه في الخطاب، ولا يعتد به عند الحساب، ومع ذلك فانا واقف عند هذا الحد، وانتظر بتفصيل القول في مسألة أمراض الاسلام وآثار البدع والمحدثات فيه والعلل التي نشبت بالمسلمين بسببها فرصة أخرى

وقبل أن أترك القاريء أنبهه الى أن ما أجمل في هذه الفصول لم يقصد به الطعن في حال أحد من الناس، ولا طائفة من الطوائف، كما يعرفه القاريء نفسه من لباس المعاني وما يكسوها من الادب، والتنزه عن كلمة تشم منها رائحة العيب على آخر، وقد يعلم من هذه النزاهة أن هذا رأي طبخناه لنطعمه بأنفسنا، وننفق منه على من

وغيرهما قبل أن يظهر في أقلام الكاتبين من غير الانكليز بأزمان طويلة. فلنا ان نقول ولا نخشى لائما : ان هذه الخصلة الشريفة — خصلة اطلاق الحرية لأهل الدين يتمتعون بأداء فرائضه مع احترام ما يحترمون — هي من أجل الخصال التي ورثها غير المسلمين عن المسلمين وهل أجد من يأبى علي القول بأن الاسلام السليم من البدع هو استاذ الانكليز وعنه اخذوا هذه الخلة ؟ ألا ترى ان نظامهم في ذلك يقرب من نظام المسلمين يوم كانوا مسلمين: يكتفون من الناس بالخضوع للقوانين واداء مايفرض عليهم من الضرائب ، ثم يحفظون نظام العدل بينهم بقدر ما تسمح به السياسة ، لا يفرقون بين دين ودين ؟ (١) وهكذا كان حال المسلمين وان كان ذلك على قاعدة أبر وأرحم .

---

١) نقول مع الاسف ان الانكليز طفقوا يرجعون القهقرى في هذا الامر وفي سائر المزايا التي فضلوا بها غيرهم من الاوربيين ، فقد منعوا المنار من السودان منذ بضع سنين ، وهم الآن يصادرونه في بلاد أخرى : ، ولهم أعمال من دون ذلك هم لها عاملون

(هذا ماعلقته في حاشية الطبعة الثالثة لهذا الكتاب سنة ١٣٤١ ومن الانصاف أن أقول إن حكومة السودان عادت الى الاذن بدخول المنار في تلك البلاد . وقد منعته فرنسه من دخول المغرب في هذا العام ١٣٤٩)

﴿ الفيلسوف ابو الوليد محمد بن رشد ﴾

﴿ قاضي القضاة في الاندلس ﴾ (*

هذا الفيلسوف أشهر فلاسفة المسلمين، وأكبر أساتذة أوربا في العلم والفلسفة . لان فلسفته انتقلت من الاندلس (اسبانية) إلى سائر بلاد اوربة فكانت مبدأ نهضة الاوربيين الحاضرة. ولد سنة ٥٢٠ في قرطبة . وتوفي سنة ٥٩٥ في بلاد المغرب

وقد نشرت مجلة الجامعة تاريخه وتكلمت عن فلسفته ، واستطردت إلى مسائل أخرى كمذهب المتكلمين في الوجود والمقابلة بين الاسلام والنصرانية في اضطهاد العلم والفلسفة وعدمه . وقد وقع في تلك الترجمة غلط في هذه المسائل . والانسان دائما عرضة للخطأ والغلط فيما تعلمه وأتقنه . فكيف يكون حاله فيما لم يتعلمه بالتلقي عن أهله إذا تكلم أو كتب فيه ؟ . وان صاحب الجامعة الفاضل لم يتعلم علم الكلام الذي هو فلسفة العقائد الاسلامية لانه ليس مسلماً، ولا فلسفة اليونانيين لانها قد نسخت بالفلسفة العصرية ، فلا شك عندنا انه لم يتعمد تكفير القاضي ابن رشد ولا نسبة أئمة المسلمين في العقائد إلى انكار ارتباط الاسباب بالمسببات . ولكن بعض الذين قرأوا تلك الترجمة في مجلته أساؤا الظن به ، واحتجوا عليه

(* منقول من الجزء العاشر من مجلد المنار الخامس بقلم منشئه

تلزمنا نفقته من أهلنا، ولم يكن يخطر ببالنا عندما أجدنا طبخه أن نفيض منه على غيرنا، لكن إذا عشا الساري إلى ضوء نارنا، وطالب القرى منا، قاسمناه ما لدينا، وعرضنا عليه أحر من نفس الحياة، وأهنأ من خلق الاناة، ان شاء الله، اه

(تم الكتاب والحمد لله)

﴿ تنبيه ﴾ قد رأينا أن نزيد في هذه الطبعة ما زدناه فيما قبلها من رد الاستاذ الامام رحمه الله على مجلة الجامعة فيما كانت كتبته في فلسفة ابن رشد ونشر في المجلد الخامس من المنار مع مقدمة الناشر له وهو ما تراه فيما يلي، وهو أول ما كتبه الاستاذ من الرد.

الكائنات ، وهو يرى في ذلك رأي ارسطو فيقول : ان كل فعل يفضي إلى خلق شيء انما هو عبارة عن حركة ، والحركة تقتضي شيئاً لتحركه ، ويتم فيه بواسطتها فعل الخلق ،وهـذا الشيء هو في رأيه المادة الاصلية التي صنعت الكائنات منها . ولكن ماهي هـذه المادة ؟ هي شيء قابل للانفعال ولا حد له ولا اسم ولاوصف. بل هي ضرب من الافتراض لابد منه ولا غنى عنه . وبناء عليه يكون كل جسم أبديا بسبب مادته، أي انه لا يتلاشى أبداً لان مادته لا تتلاشى أبداً وكل أمر يمكن انتقاله من حيز القوة إلى حيز الفعل لا بد له من هذا الانتقال وإلا حدث فراغ ووقوف في الكون ، وعلى ذلك تكون الحركة مستمرة في العالم ، ولولا هـذه الحركة المستمرة لما حدثت التحولات المتتالية الواجبة لخلق العالم بل لما حدث شيء قط . وبناء عليه فالعامل الاول الذي هو مصدر القوة والفعل (أي الخالق سبحانه وتعالى) يكون غير مختار في فعله لان الحرية والاختيار يقتضيان كونه محدثا، والخالق تنزه عن ان يكون حديثا

اتصال الكون بالخالق

«هذا فيما يختص بخلق العالم وهو مذهب قريب جداً من مذاهب الماديين كما ترى، ولكن كيف يستولي العامل الاول على الكون ويدبره ؟»

ورغبوا الينا في الرد عليه ، لان من وظيفة المنار الدفاع عن العقائد الاسلامية وعن ائمة المسلمين

وطلب بعضهم مثل ذلك من بعض أساتذتنا الاعلام ، الذين يرجع اليهم اذا اعتكر من ليل الشبهات الظلام، ولما رأينا ذلك الاستاذ وعد الطالبين بان يكتب في بيان حقيقة تلك المسائل التي وقع فيها الخطأ أمسكنا نحن عن الكتابة ، لأنه هو الاجدر بالفصل بين الحق والباطل ، والذي اذا قال لم يترك مجالا لقائل ، وقد تفضل علينا وعلى الجامعة بما كتب فننشر في هذا الجزء مقالته في فلسفة ابن رشد ومذهب المتكلمين وسننشر في الاجزاء التالية مقالاته في « الاضطهاد في النصرانية والاسلام » (*

تمهيد لمقالة الاستاذ الحكيم

لابد لفهم قراء المنار هذه المقالة من ذكر ماقالته الجامعة في فلسفة ابن رشد لان كاتب المقالة لم يذكر فيها إلا مواضع النقد قالت الجامعة :

المادة وخلق العالم

« ان أعظم المسائل التي شغلت حكيم قرطبة مسألة أصل

*) هو الذي سميناه « الاسلام والنصرانية مع العلم والمدنية »

يكون للعقل الاول الذي هو مصدر كل هذه الحركات علم بكل مايحدث في العالم

طريق الاتصال

« وإن قيل ماهي علاقة الانسان بالخالق ؟ فالجواب عن ذلك يأخذه ابن رشد أيضا عن ارسطو من الفصل الثالث من كتابه (النفس) وخلاصة ذلك ان في الكون عقلا فاعلا وعقلا منفعلا، فالعقل الفاعل هو عقل عام مستقل عن جسم الانسان وغير قابل للامتزاج بالمادة، وأما العقل المنفعل فهو عقل خاص قابل للفناء والتلاشي ، مثل باقي قوى النفس . وإنما يقع العلم والمعرفة باتحاد هذين العقلين

«ذلك أن العقل المنفعل يميل دائما للاتحاد بالعقل الفاعل كما أن القوة تقتضي مادة تنفذ فيها . والمادة تقتضي شكلا توضع به . وأول نتيجة تحصل من هذا الاتحاد تدعى العقل المكتسب، ولكن قد تتحد النفس البشرية بالعقل العام اتحاداً اشد من هذا فيكون هذا الاتحاد عبارة عن امتزاجها جد الامتزاج بالعقل القديم الازلي، ولا يتم هذا الاتحاد بالعقل الاكتسابي الذي تقدم ذكره . فانما وظيفة العقل الاكتسابي ايصاله إلى حرم الخالق الازلي دون أن يدغمه به، وأما إدغامه واتصاله به فذلك أمر لايتم الا بطريق (العلم)

« لابن رشد في ذلك تمثيل يدل على حقيقة مذهبه في هذه المسألة الخطيرة، فانه يشبه حكومة الكون ـ أي تدبيره ـ بحكومة المدينة، فانه كما ان كل شؤون المدينة تتفرق وتتجه إلى نقطة واحدة، وهي نقطة الحاكم العام فيها . فيكون هذا الحاكم مصدراً لكل شؤون الحكم ولو لم تكن له يد في كل شأن من هذه الشؤون — كذلك الخالق في الاكوان، فانه نقطة دائرتها، ومصدر القوات التي تدبرها، وإن لم يكن له دخل مباشر في كل جزء من هذه القوات ، فبناء على ذلك لا يكون للكون [اتصال] بالخالق مباشرة، وإنما هذا الاتصال يكون للعقل الاول وحده . وهذا العقل الاول هو عبارة عن المصدر الذي تصدر عنه القوة للكواكب ، وعلى ذلك فالسماء في رأي فيلسوف قرطبة كون حي ، بل أشرف الاحياء والكائنات وهي مؤلفة في رأيه من عدة دوائر يعتبرها أعضاء أصلية للحياة . والنجوم والكواكب تدور في هذه الدوائر ، أما العقل الاول الذي منه قوتها وحياتها فهو في قلب هذه الدوائر ، ولكل دائرة منها عمل أي قوة تعرف بها طريقها ، كما ان للانسان عقلا يعرف به طريقه . وهذه العقول الكثيرة المرتبطة بعضها ببعض، والتي يلي بعضها بعضا محكومة بعضها ببعض، انما هي عبارة عن سلسلة من مصادر القوة التي تحدث الحركة من الطبقة الاولى في السماء إلى ارضنا هذه ، وهي عالمة بنفسها وبما يجري في الدوائر السفلى البعيدة عنها . وبناء على ذلك

الخلود

ثم تكلمت الجامعة بعد ما تقدم عن رأي ابن رشد في خلود النفس فقالت بعد كلام مانصه « قال ان العقل الفاعل العام الذي تقدم ذكره من صفاته انه مستقل ومنفصل عن المادة وغيرها ، غير قابل للفناء والتلاشاة . والعقل الخاص المنفعل من صفاته الفناء مع جسم الانسان ، وبناء عليه يكون العقل العام الفاعل خالدا والعقل المنفعل فانيا، ولكن ما هو العقل الفاعل العام الذي هو خالد في رأي ابن رشد ؟ ان هذا العقل الخالد هو العقل المشترك بين الانسانية، فالانسانية اذاً هي خالدة وحدها دون سواها، وبناء على ذلك لا يكون بعد الموت حياة فردية ولا شيء مما يقوله العامة عن الحياة الثانية» اه.

كلام فرح افندي انطون في الجامعة

وهاك رد الامام عليه

فالعلم اذاً هو سبب (الاتصال) بين الخالق والمخلوق ولا طريق غير هذا الطريق، ومتى اتصل الانسان بالله صار مثله عارفا بكل شيء في الكون ولم يعد يفوته شيء، ولكن كيف يتصل الانسان بالله ؟

« يتصل به بأن ينقطع الى الدرس والبحث والتنقيب ويخرق بنظره حجب الاسرار التي تكتنف الكون، فانه متى خرق هذا الحجاب ووقف على كنه الامور وجد نفسه وجهاً لوجه أمام الحقيقة الابدية

« أما المتصوفة فانهم يقولون إن هذا (الاتصال) يتم بواسطة الصلاة والتأمل والتجرد وليس العلم ضروريا له

«وبناء على ذلك تكون فلسفة صاحب الترجمة عبارة عن مذهب مادي، قاعدته العلم، والكون في رأيه، كما رأيت ـ انما صنع بقوة مبادىء قديمة مستقلة محكومة بعضها ببعض، وكلها مرتبطة ارتباطا مبهما بقوة عليا، ومن هذه المبادىء شيء يستولي على العالم ويضع فيه العقل فهو عقل الانسانية، وهذا الشيء الذي يسميه عقلا أيضا هو عقل ثابت لا يتغير أي انه لا يتقدم ولا يتأخر لا يزيد ولا ينقص، والناس يشتركون فيه ويستمدون منه بكميات متباينة على أن من كان منهم أكثر استمدادا منه كان أقرب الى الكمال والسعادة »

موضعين آخرين يطلبان مني الكلام عليهما ، وبأن أحادث الجامعة فيهما ، لو كانت منزلة الجامعة من نفسي منزلة غيرها من المجلات التي لايعنى كاتبوها إلا بنقل مايقع تحت أنظارهم ، أو تحبير مايعبر عن أهوائهم وأفكارهم ، من دون عناية بتقرير الحقيقة ولا رعاية لمعتقدات القراء — لوجدت من شواغل عملي مايصرفني عن ذكر ماعرض فيهما ، لكنها من المجلات التي لو أهملت مباحثها من انعام النظر ، وجعلتها في جانب عما تستحقه من النقد ، لبخستها حقها ، ونبوت بها عن موضعها .

لهذا رأيت أن أذكر لها مارأيت في ذينك الموضعين وأبين حقيقة الامر في الثالث . أما الموضعان فهما (فلسفة المتكلمين وآراؤهم في الوجود) و (فلسفة ابن رشد وآراؤه في خلق العالم واتصال الكون بالخالق وطريق اتصال الانسان به والخلود) وهما موضوع كلامي اليوم

﴿ فلسفة المتكلمين وآراؤهم في الوجود ﴾

قالت الجامعة : « فلسفة المتكلمين هذه (أى في وجود العالم) مبنية على أمرين ، الاول حدوث المادة في الكون أى وجودها بخلق خالق . والثاني وجود خالق مطلق التصرف في الكون ومنفصل عنه ومدبر له . وبما أن الخالق مطلق التصرف في كونه فلا تسأل إذاً عن السبب اذا حدث في الكون شيء لان الخالق

دفع وهم عن فلسفة ابن رشد والمتكلمين

لأستاذ حكيم ، وفيلسوف عليم (١)

قرأت ما نشرت الجامعة من ترجمة ابن رشد ومررت على مانقلت من آراء المتكلمين وآرائه بغير تدقيق لانني أعرف آراء الفريقين من قبل ، ولم يكن لي قصد الى النقد وانما أريد أن أستفيد جديداً ، لهذا لم يقف نظري لاول وهلة إلا على ماحوته تلك الحلقة (الاضطهاد في النصرانية والاسلام) قرأتها بتروٍ وانتهيت منها الى حكم من الجامعة يخالف ما أعتقده ولا يلتئم مع ما أعرف ويعرف العارفون من الشواهد التاريخية . عند ذلك تحركت نفسي الى كتابة سطور ، أشير فيها الى كشف مستور ، أو إعادة ذكر مشهور ، على اسماع الجمهور

لاقاني بعض قراء تلك الترجمة فرأيت الاثر في نفسه أشد ، ولسانه في العتب أحد ، وذكر اشياء في غير هذا الفصل من الترجمة ولفتني الى اعادة النظر فيها . رجعت الى الترجمة فوجدت فيها

---

١) هو الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده لم نصرح باسمه وقتئذ ولكن عرفه كل من قرأ الرد وهذا المقال أول مانشر منه في المنار

الكون ، ثم انه أراد إيجاد الكون فأوجده من العدم البحت، هذا هو بناء مذهب المتكلمين وهو مذهب أهل النظر من المسيحيين واليهود أيضا ،فلم يخالف فيه ملي من أهل الملل الثلاث

أما كون هذا المذهب وحده هو الذي يصح أخذه من القرآن أو أنه يجوز أن يتفق مع معاني القرآن رأي آخر، بل هو الذي يظهر منه فذلك بحث آخر لسنا بصدده الآن (١) فان كلامنا في تصوير مذهب المتكلمين

الاصل الثاني — وهو وجود خالق مطلق التصرف — لازم للاصل الاول ، لان هذا العالم إذا كان موجوداً بفعل موجد فموجده هو خالقه وهو مطلق التصرف، بمعنى انه يختار مايخلق على الوجه الذي يخلق ،والمتكلمون، وان اتفقوا على أن خالق العالم مختار انقسموا إلى فريقين عظيمين،فالقدرية منهم ـ ويسمون بالمعتزلة أيضا ـ قالوا: ان الخالق وضع للكون نظاما تنطبق أصوله على مصالح المخلوقين واودع في المخلوقين قوى أو قدراً تصدر عنها آثارها بطريق التوليد والسببية او بطريق الارادة والاختيار فهذا فريق من المتكلمين لايخالف الفلاسفة في قولهم بلزوم الآثار لمصادرها ، أو تأثير قدر المخلوقين في أفعالهم وقد بقي من أهل هذا المذهب الى اليوم طائفة الشيعة الامامية والزيدية فانهم لايخالفون المعتزلة في هذه الاصول ، فاذا

---

(١) وقد أشار اليه في الكلام على طبيعة الاسلام في التمهيد للأصل الأول من أصوله (ص)

نفسه هو السبب وليس من سبب سواه، إذاً فلا يلزم عن ذلك قطعياً أن يكون بين حوادث الكون روابط وعلائق، كأن ينتج بعضها عن بعض لان هذه الحوادث تحدث بأمر الخالق وحده. وفي الامكان أن يكون العالم بصورة غير الصورة المصور بها الآن وذلك بقدرة هذا الخالق» ثم ذكرت في الجملة التي تلي ماتقدم أن هذه فوضى، وأن روحا جديداً أخذ يدخل شيئا من النظام فيها(١)

حدوث المادة عند المتكلمين ليس معناه أن تكون بخلق خالق فان الخلق في اصطلاحهم هو الايجاد وكون المادة صادرة عن موجد لم يختلف فيه المتكلم والفيلسوف الالهي. فارسطو يقول ان المادة قد استفادت وجودها من موجدها وهو الواجب. وواسطة فيض الوجود عليها هو العقل الفعال على ماسيأتي بيانه، وان كان لا أول لوجودها. وانما حدوث المادة عند المتكلمين هو وجود الاجسام وعوارضها بعد ان لم تكن موجودة، بحيث يفرض لوجودها بداية زمانية تنتهي اليها سلسلتها من جانب الماضي ولا يجوز أن يوصف بالازلية الا الله وحده وصفاته عند القائلين بانها وجودية، وقبل هذه البداية التي لايمكن تحديدها لم يكن وجود سوى وجود خالق،

---

١) ذكرت الجامعة ان منبع هذا الروح النظامي في مجلة المنار واستشهدت لذلك بالتفسير الذي يقتبسه من دروس الاستاذ الامام كبير رجال النهضة الاسلامية الحاضرة

يلتزمها مع اعتقادهم بأنه قررها وجرت سنته بها، ولقبوا مايحدث في العالم مخالفا لها بخرق العادة وليس كل غريب عندهم خارقا للعادة بل الخارق هو مالايدخل في مكنة قوة حادثة، ولا يقدر على احداثه إلا القادر على مخالفة النظام الذي سنه وهو الله

هذا الفريق من المتكلمين يستند في اثبات صفة العلم لله تعالى الى مافي هذا العالم من النظام والى ماحواه ذلك النظام من الاسرار والحكم وهل يتأتى هذا الاستناد منهم ان لم يقولوا بوجود العلاقة بين الاسباب ومسبباتها ؟

كان من هذا الفريق أئمة تناول بحثهم كثيرا من الفنون كالطب وعلوم المواليد الثلاث الحيوان والنبات والمعدن — منهم الأئمة الرازيون، كفخر الدين الرازي وأبي بكر الرازي ومحمود الرازي وأمثالهم، ومنهم الامام أبو بكر الباقلاني. وكيف يتيسر لقائل انه لاعلاقة بين الاسباب والمسببات أن يبرع في فنون بناؤها على الارتباط بين الآثار ومايقارنها في العادة مماهو مصدر لها في بادىء النظر ؟

فاذا حدث في الكون حادث سأل صاحب هذا المذهب عن سببه الذي جرت سنة الله بأن يكون معه، وان شئت قلت سأل عن السبب الذي اصدر الله وجوده عنده، وهل يمكن أن يقول المتكلم انه لا علاقة بين الولد وبين وجود والديه، أو بين جودة العمل وعلم العامل، او بين غزارة الثمر وخدمة الشجر ؟ هذا شيء لم يقل به قائل منهم قط، وإلا لما قرأ واحد منهم كتابا، ولا خط في صحيفة سطرا،

حدث في الكون حادث سأل صاحب هذا المذهب عن سببه المباشر له ـ وان كانت جميع الاسباب تنتهي الى مصدرها الاول وهو الخالق ـ كما يسأل الفيلسوف بلا فرق

والفريق الآخر الذي عنته الجامعة، وهو الذي يرى اسناد الآثار الى الخالق مباشرة لم يقطع العلاقة بين الاسباب الظاهرة ومسبباتها، بل قال ان الله يصدر وجود المسبب عند وجود السبب فلا يقال ان الاكل ـ مثلا ـ هو الذي يحدث الشبع، بل الشبع شيء يحدثه الله عند الاكل ولكنه لا يحدثه عند الخوى الا إذا أراد أن يخرق النظام الذي جرت به سنته لامر عظيم يريد توجيه النفوس اليه. وحمل هذا الفريق على هذا القول انكار نسبة الايجاد ومنح الوجود الى شيء سوى واجب الوجود. وقالوا في الافعال الاختيارية: ان الله يوجدها عند تعلق كسب العبد بها. ولهم في تصوير معنى الكسب كلام طويل لا يليق بهذا المقال استيفاؤه(١)

وقالوا ان الاسباب والآلات لابد منها في صدور الاثر، إلا أن الذي يعطيه الوجود عند استكمالها هو الخالق ولهذا اتفق جميع المتكلمين على أن التكليف بالاحكام الشرعية يعتمد التمكن من الاتيان بالمكلف به من حيث حال المكلف، وصرحوا بأنه لم يقع تكليف بشيء إلا اذا تيسرت أسبابه وارتفعت الموانع منه. غير أنهم يلقبون هذه الاسباب بالعادية، لانه ليس من الواجب على الخالق أن

---

١) المراد بهذا الفريق الاشعرية وهم الفريق الاكبر من المتكلمين

الدين الآخر بان دينهم لم يوضع أساسه على وعث من الخوارق(١) لايلبث أن يخسف بالسالك فيه اذا سال عليه سيل الدليل ، وانما وضع على مستقر من الحقائق لايتزلزل بالقائم عليه مهما عظم القال والقيل ، وليس من الممكن لمسلم ان يذهب إلى ارتفاع مابين حوادث الكون من الترتيب في السببية والمسببية إلا اذا كفر بدينه قبل ان يكفر بعقله

نعم طرأ فساد على عقائد بعض المنتسبين إلى أئمة ذلك المذهب وأساؤا الظن بالقدر وتظاهروا بترك الاسباب في أقوالهم ، وإن كانوا أشد الناس تمسكا بها في رذائل أعمالهم ، وتعلقوا من الخوارق بحبل واهن ميلا إلى أهواء من جاورهم من الملل . فظن الناظرون في قذائف أفواههم ، انهذه الاوهام مما بني عليه اعتقاد أسلافهم ، فلا يغترن بعد ذلك مغتر بما يظن أولئك الناظرون ، ولا بمايتوهمه هؤلاء الواهمون (سبحان ربك رب العزة عما يصفون)

هذا مايتعلق برأي الجامعة في مذهب المتكلمين أو فلسفتهم ونتنقل الآن إلى روايتها مذهب الفيلسوف ورأيها فيه

---

١) الوعث بالواو — المكان الرخو والارض اللينة تسيخ فيها الاقدام والحوافر

لانه لا علاقة بين المطالعة والفهم ولا بين التحرير والافهام

فان شئت أن تقول: انه مذهب مع ذلك غامض يكد الذهن في فهمه، فلك ان تقول وأن تنعم النظر، حتى تفهم مبانيه وأصوله، وأن تناقش بالدليل الدليل، وعلى الله قصد السبيل

القول بنفي الرابطة بين الاسباب ومسبباتها جدير بأهل دين ورد في كتابه: ان الايمان وحده كاف في أن يكون للمؤمن أن يقول للجبل تحول عن مكانك فيتحول الجبل(١) يليق بأهل دين يعد الصلاة وحدها اذا أخلص المصلي فيها كافية في اقداره على تغيير سير الكواكب، وقلب نظام العالم العنصري . وليس هذا الدين دين الاسلام. دين الاسلام هو الذي جاء في كتابه (وقل اعملوا فسيرى الله عملكم) الآيه (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل) الخ (سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) وأمثالها (ان في خلق السموات والارض واختلاف الليل والنهار) الآيات.

فلا يمكن لاهل هذا الدين وهو هو ان يقطعوا كل علاقة بين الاسباب في هذا العالم والمسببات . ولهم ان ينبهوا على أرباب ذلك

---

١ » يشير الى ما جاء في انجيل لوقا من الباب ١١ : ٢٣ لأني الحق أقول لكم ان من قال لهذا الجبل انتقل وانطرح في البحر ولا يشك في قلبه بل يؤمن ان ما يقوله يكون فمهما قال يكون له ٢٤ لذلك أقول لكم كلما تطلبونه حينما تصلون فآمنوا أن تنالوه فيكون لكم »

يعلم كل ناظر في مذاهب فلاسفة اليونان أنهم كانوا فريقين. إلهيين وماديين والاولون فريقان مشاؤن وإشراقيون، واشتهر أتباع ارسطو باسم المشائين واتباع أفلاطون باسم الاشراقيين

وأول مميز للالهيين عن الماديين ان الاولين يقولون بوجود واجب بريء من المادة والماديات، وبوجود عقول مجردة عن المادة وغواشيها، وبان للواجب علما بذاته وبجميع مايصدر عنه وعن آثاره، وان للعقول المجردة عقلا وعلما بذواتها وبمبدئها، وبما يصدر عنها، والماديون لايقولون بشيء من ذلك البتة، فالتقريب بينهما تقريب بين النقيضين. وابن رشد من مقرري مذهب ارسطو فهو من الآلهيين

وتشبيه الفيلسوف لتدبير الكون بتدبير المدينة أكبر دليل على مفارقة الماديين، كما يفارق المجرد المادة. وقد شرطوا في هذا التشبيه أن المدبّر خارج عن المدبَّر مفارق له منزه عن مخالطته

وأما العقل الاول فليس كما تقول الجامعة، فان العقل الاول جوهر مجرد عن المادة وهو أول صادر عن الواجب، وقد صدر عنه الفلك التاسع المسمى عندهم بالفلك الاطلس، ونفس ذلك الفلك تدبر حركاته الجزئية، وعقل آخر هو العقل الثاني وعن هذا الثاني صدر الفلك الثامن المسمى عندهم بالعقل الفعال أو العقل الفياض، وعن هذا العقل صدرت المادة العنصرية واليه يرجع مايحدث في عالمها، ولا يكون العقل الاول ولا غيره من العقول في قلب تلك الدوائر عند أحد من هؤلاء

﴿ فلسفة ابن رشد ورأيه في المادة وخلق العالم ﴾

المـادة وخلق العالم

قالت الجامعة « ان المادة ضرب من الافتراض لا بد منـه » الافتراض يراد به عند الاطلاق الفرض، وهو في اصطلاح الفلاسفة مالا وجود له ، والمادة عندهم موجودة، كما قالت الجامعة فيما قبل ذلك التعريف وفيما بعده

ثم قالت : « وبناء عليه فالعامل الاول الذي هو مصدر القوة والفعل (اي الخالق سبحانه وتعالى) يكون غير مختار في فعله ، لان الحرية والاختيار يقتضيان كونه محدثا، والخالق ينزه عن أن يكون حديثا » وقالت بعد هذا بسطرين « وهو (اي مذهب ابن رشد) مذهب قريب جداً من مذاهب المـاديين كما ترى » ثم ذكرت ان الفيلسوف يشبه حكومة الكون بحكومة المدينة وأن المباشر للتصرف في الكون هو العقل الاول وحده، وأن السماء كون حي مركب من عدة دوائر والعقل الاول في قلب هذه الدوائر ولكل دائرة عقل أي قوة تعرف بها طريقها » الخ

أما مسألة نفي الاختيار فقد ذكرت على ابهامها وأدى ذكرها كذلك الى استنتاج أن مذهب ابن رشد قريب من مذهب الماديين ، وليس الامر في حقيقته كذلك

بمعنى التردد بين الغايات ثم ترجيح احداها ، وأما الاختيار بمعنى ان الفعل صدر عن علم العالم بدون اكراه عليه فذلك لاينفيه أحد منهم ، والمليون من متكلمين ولاهوتيين وإن لم يصرحوا بذلك قالوا بما يؤول اليه والتزموه ، فقد ذهب جمهورهم والمعول على رأيه عند قومه منهم ان علم الله محيط بالكليات والجزئيات أزلا وأبداً ، وقد تعلقت ارادته بتخصيص كل كائن بما هو عليه على حسب علمه ، وعلمه لازم لذاته أزلي بأزلية ذاته ، وكل مايكون في الكون لابد أن يقع على وفاق علمه الازلي جل شأنه ، فلا تردد عنده بين الغايات ، بل مايصدر عنه اليوم كان لابد ان يصدر عنه ، والاسباب والمسببات وارتباط بعضها ببعض مما انتظم في علمه ، فهي تصدر عنه على حسب ترتيبها في العلم

وسواء كان هذا القول غامضا أو غير غامض ، وسواء توجه عليه من النقد ما يصعب الجواب عنه اذا روعيت بقية الاصول أو لم يتوجه . كل ذلك لا يدفع عنهم انهم قالوا بنفي الاختيار بالمعنى المعروف عند الناس ، وإن ثبت الاختيار بالمعنى الذي يليق بكمال الله تعالى ، فالفلاسفة وجمهور المتكلمين واللاهوتيين على وفاق في حقيقة المسألة وإن اختلفت العبارات ، فابن رشد رحمه الله لم يخرج في آرائه عن المليين ، فلا يصح أن يكون مذهبه مذهب الماديين ولا قريبا منه

الفلاسفة الالهيين، بل هو مفارق لها، كما أن نفوسها جواهر مفارقة أيضاً، ولها تعلق باجسادها كتعلق أنفسنا بابداننا على ما سيأتي بيانه

والذي حمل الآلهيين على ذلك مبالغتهم في تنزيه الواجب وقولهم : انه واحد من جميع الوجوه وزعمهم ان الواحد من كل وجه لايصدر عنه الا الواحد فيلزم أن لا يصدر عن الواجب إلا واحد وهو العقل الاول. ولما تعددت وجوه العقل في ذاته والنسبة بينه وبين مصدره وعقله لذاته وعقله لموجده صح أن يصدر عنه متعدد، ولهم في الاستدلال على حياة الافلاك مقدمات لاحاجة إلى ذكرها لان الكلام في تصوير مذهبهم لا في تقريره أو ابطاله

فالعقول عند الفيلسوف ليست مخالطة للمادة ولا يغشاها شيء من ظلماتها ، وليس العقل الاول بمدبر الكون وانما هو مصدر الفلك الاطلس ومفيض نفسه عليه وخزانة معقولاته وهكذا الامر في كل عقل مع الفلك الذي صدر عنه. وتدبير العالم العنصري وهو مادون فلك القمر راجع إلى العقل العاشر وهو العقل الفعال

قال الفلاسفة الالهيون : ولا يجوز ان تكون لافعال الله غايات وأغراض تبعثه على اصدارها ، وان مايصدر عنه انما يفيض بمحض الوجود المطلق عن غنى مطلق . وقد صرح ابن رشد في تهذيبه الالهيات ارسطو بذلك ، وهذا مبالغة منهم في نسبة الكمال إلى الله على ان مايصدر عنه انما يصدر عن علم، فالذي ينفى عنه انما هو الاختيار،

وقالوا: ان انطباع المحسوسات والمعاني الجزئية في الحواس الظاهرة والباطنة ـ على مافصلوه ـ يعد النفس لقبول الكليات ويهيؤها لتلقي المعقولات عن مفيضها عليها وهو العقل الفعال الذي سبق لنا ذكره وجعلوا مراتب النفس في استحصالها كمالها العلمي وبلوغها ذروته أربعا

(الاولى) العقل الهيولاني وهو قوة استعداد النفس نحو المعقولات ، وتسميته عقلا تسمية مجازية

(الثانية) العقل بالملكة وهي القوة التي تحصل للنفس عند حصول المعقولات الاولى مثل الجزء والكل ومثل الحكم بان الاول أصغر من الثاني ومثل النفي والاثبات والحكم بأنهما لايجتمعان في محمول واحد لموضوع واحد وكذلك كل ماخلص من محسوس وهو لايحتاج في تخليصه الى فكر ، والنفس تتهيأ بهذه القوة لاكتساب المعقولات الثانية إما بالفكر وإما بالحدس ، وليس الحدث هو الظن كما هو في المشهور بل هو سرعة انتقال النفس من المبادي ء الى المطالب أو انتقال النفس من المعلومين الى الوسط الذي يصل بينهما ومن ذلك الى معلوم ثالث بلا تجشم نظر . ولذلك جعل مقابلا للفكر الذي هو النظر بعينه .

(الثالثة) قوة تسمى العقل المستفاد ، وهي أن تحصل المعقولات الثانية بالعقل متمثلة كالأولى مشاهدة في الذهن

(الرابعة) قوة تسمى « العقل بالفعل » وهي مابه تتمكن النفس من استحضار المعقول المكتسب المفروغ منه متى شاءت من غير افتقار الى اكتساب

طريق الاتصال

يتوهم الناظر في هذا العنوان في الجامعة مع مراعاة الفصل الذي تقدمه فيها انه عنوان لرأي ابن رشد في طريق اتصال الكون بالخالق ، فاذا استمر في قراءة مابعد العنوان إلى آخر الفصل علم ان المراد طريق اتصال الانسان وحده بخالقه، وعثر في آخر البحث على هذه العبارة « وبناء على ذلك تكون فلسفة صاحب الترجمة عبارة عن مذهب مادي قاعدته العلم » وأما مابين العنوان وهذه العبارة، مما لايمكن أن يتحصل له معنى مفهوم في مذهب الفيلسوف ،

واني ذاكر لك رأيه في اتصال الانسان بالله اي قربه منه وسعادته به ، وفي طريقة تكميله لنفسه، حتى يستعد لذلك القرب، وبذلك تعرف ان ماجاء في الجامعة ليس بالذي تصح نسبته اليه، خصوصا بعد قولها انه أخذ مذهبه في ذلك عن ارسطو من الفصل الثالث من كتابه (النفس) وما قاله ارسطو في ذلك الكتاب معروف مشهور

أثبت ارسطو وتبعه ابن رشد وجل فلاسفة الاسلام ان نفس الانسان التي هو بها انسان — وهي مايلقبونها بالنفس الناطقة — جوهر مجرد عن المادة لا هو جسم ولا حال في جسم، وانما له علاقة بالجسم يدبره ويصرفه، وشبهوا هذه العلاقة بعلاقة الملك بالمدينة وهو خارج عنها ، ولهذه النفس آلة في الجسم بها يكون التدبير

له من المعقولات له علة وعلته قوة بعيدة هي العقل الهيولاني وقوة كاسبة هي العقل بالملكة وقوة تامة الاستعداد لها أن تقبل بالنفس جهة الاشراق متى شاءت بملكة متمكنة وهي المسماة بالعقل بالفعل

ثم ان الفيلسوف وأتباع مذهب أرسطو ذكروا آراء بعض الفلاسفة ممن لا يعتد بقولهم، وفيها ما يشبه ما نسبته الجامعة لابن رشد ، منها أن الجوهر العاقل اذا عقل صورة عقلية صار هو اياها ، واستدلوا على استحالة هذا القول بأنه يلزم عليه أن تصير النفس جميع المعقولات التي تحصل لها وتصير المعقولات كلها معقولا واحدا بل يلزم عليه انعدام النفس ووجود ما عقلته أو استحالة النفس اليه وهو محال وخلاف الفرض

ونقلوا عن (فرفوريس) أنه قال: ان النفس الناطقة اذا عقلت شيئا فانما تعقل ذلك الشيء باتصالها بالعقل الفعال — وهو حق في رأيهم — ولكنه قال : ان معنى اتصالها بالعقل الفعال أن تصير هي نفس العقل الفعال لانها تصير العقل المستفاد والعقل الفعال يتصل نفسه بالنفس فيكون العقل المستفاد ، وقد أبطلوا هذا القول بأنه يستلزم أن يكون العقل الفعال متجزئا قد يتصل منه شيء دون شيء — وهو مجرد لا يتجزأ — أو تتصل به النفس اتصالا واحدا تكون به النفس كاملة واصلة إلى كل معقول وهو ليس بحاصل في جميع الاحوال ، وقالوا : ان دعوى اتحاد شيء بشيء آخر — على معنى استحالة الاول الى الثاني — قضية شعرية غير معقولة فلا يصح النظر فيها ، وأما استحالة النفس إلى العقل الفعال فلم يقل به أحد

قالوا: والذي يرقى بالنفس في هذه المراقي هو العقل الفعال وهو ذلك العقل العاشر المصرف للمادة العنصرية لا عقل الانسانية العام كما تقول الجامعة فان أرسطو وابن رشد لا يقولان بعقل يسمى عقل الانسانية العام بل كان ذلك من مزاعم افلاطون التي عني أرسطو بابطالها لها وتبعه ابن رشد وغيره في نفيها ، فالعقل الفعال هو الذي يخرج النفس من العقل الهيولاني الى العقل بالملكة ، ومن العقل بالملكة الى العقل المستفاد ، ومنه الى العقل بالفعل

ولما كان العقل الفعال جوهراً عقليا بالفعل كانت المعقولات بأسرها حاصلة له بالفعل. وأما نفوسنا فهي عقول بالقوة ولكنها اذا استعدت استعداداً خاصاً للاتصال بذلك العقل أي بالاقبال عليه وتوجيه وجهتها نحوه ارتسم منه فيها الصور العقلية الخاصة بذلك الاستعداد الخاص لاحكام خاصة وإدراك المعاني الجزئية بواسطة الحواس وحركة النفس في المعقولات الاولى والبحث والتجربة والدرس وما ينحو هذا النحو كل ذلك من محصلات الاستعداد لقبول المعقولات في الموضوعات التي كان الاستعداد فيها فاذا أعرضت النفس عن العقل الفعال والتفتت الى جانب الحس أو الى صورة أخرى غير التي حصلت لها بذلك الاستعداد انمحى المتمثل الذي كان أولا ، كأن المرآة التي كان يحاذي بها جانب القدس ، قد أعرض بها عنه الى جانب الحس ، أو الى شيء آخر من الامور القدسية

قالوا: وهذا الاتصال الذي يفيض به العقل الفعال على النفس ما استعدت

مانقله فلاسفة أوربا عن ابن رشد

بقي علينا أن نشير إلى مانقله فلاسفة أوربا عن الفيلسوف الجليل ابن رشد في مبدإ العالم ومصدر وجوده . قالوا : لم يكن يعرف العلم والفلسفة عند الاوربيين إلا في مدارس المسلمين في أسبانيا ، فكان يقصد تلك المدارس طلاب للعلم من كل ناحية . كان يجلس في درس الفيلسوف عدد عظيم . لم تأت نهاية القرن الثاني عشر (الميلادي) إلا وقد انتشر بين المشتغلين بشيء من العلم رأي زعزع طمأنينة الكنيسة وأفزع القابضين على مفاتيح القلوب بذلك الوقت الواقفين على أبوابها يأذنون لما شاؤا من العقائد والافكار أن يدخل فيها ويطردون عنها ماشاؤا . ذلك الرأي الذي أخذ يتسرب إلى القلوب رغم حجابها هو ان الكون أجمع يرجع في وجوده إلى واحد هو حياة الكل وهو روح يقوم به كل جزء منه. وقالوا : إن الذي نشر هذا المذهب بين الناس هم تلاميذ ابن رشد . ففهم بعض علمائهم ان ابن رشد كان يقول ان مبدأ العالم هو أصل عرضت له صور العالم او روح ظهر في مظاهر الكائنات كما يقول الصوفية او نحو ذلك . واستتبع هذا رأيا آخر وهو ان كل صورة من صور الموجودات اذا بطلت فانما تعود إلى أصلها وهو الوجود المطلق . وظن الواهم ان الارواح تعود بعد مفارقة الاجسام إلى مشرقها العام ، وتفقد امتيازها فيه ، وذلك كله — وان ذهب اليه بعض النظار من الاوربيين — غير ما

فقد عرفت من هذا ان اتصال النفس بالعقل الفعال ليس معناه الفناء فيه أو الاندغام كما عرفته الجامعة بل معناه أن ترتفع النفس بقواها عن ظلمة الطبيعة بما يكون لها من الاستعداد وتنجذب نحو العالم الاعلى ، فتشرق فيها المعلومات بمحاذاتها لمطالع ذلك النور الاجلى ، فهل مع هذا يصح أن ينسب الى الفيلسوف ما عده غير معقول؟

قال الفيلسوف وشيعته : ان النفس الناطقة التي هي موضوع ما للصورة المعقولة غير منطبعة في جسم تقوم به بل هي جوهر عاقل ذو آلة بالجسم فاذا استحال الجسم عن أن يكون آلة لها وحافظا للعلاقة معها بالموت لم يضر ذلك جوهرها بل تكون باقية بما هي مستفيدة الوجود من الجواهر العقلية ، فالنفس بعد مفارقتها للبدن باقية على استقلالها لا تعدم شخصيتها بالفناء في شيء سواها لا عقل فعال ولا وجود واجب ، وهي تسعد بكمالها العلمي والادبي الذي حصلته مدة تعلقها بالبدن . وجوز الفيلسوف أن تتعلق بعد فراقها للبدن بجسم آخر من عالم آخر تتخيل فيه ماهو لذة لها . وتشقى بجهلها ورداءة ملكاتها ، فالنفس عند الفيلسوف باقية خالدة ، خلودها خلود لشخصها المميز من كل شيء سواها ، سواء كان عقلا فعالا أو غيره

فهل بعد هذا يعد الفيلسوف ماديا ومذهبه مذهبا ماديا ، قاعدته العلم؟ لا بل هو إلهي ومذهبه مذهب الهي قاعدته العلم قائل بخلود النفس وسعادتها وشقائها وعذابها ونعيمها كما رأيت

فانما ينال ذلك بالاضافة الى الوجود الحقيقي . وأولى بالتسمية أن تكون مجازية من أن تكون حقيقية »

مع ذلك لايزال صاحب هـذا القول يعتقد بتجرد الواجب عن المادة والمدة إلا ان من تلقفه منه توسع فيه حتى كان من ذيوله رأي القائلين بأن الموجد الاول روح سار في العالم واليه يرجع كل أشخاصه لفناء شخصيتهم فيه وما هو برأي ابن رشد ولا يعرفه

على ان الصوفية ـ وهم المصرحون بوحدة الوجود المعبرون بالشهود أولا والفناء آخراً الناطقون في ذلك بما لم ينطق به أحد سواهم ـ لم يقولوا بزوال هويات النفوس زوالا حقيقيا ، بل قالوا انها خالدة بعد مفارقة الابدان ، ولكنها تسعد في خلودها ، باستغراقها في شهودها ، وذهولها عن كل مايشغلها عن مصدر وجودها ، فهي غنية بعرفانه عن معرفتها بنفسها ، وهو مايعبر عنه بالفناء ولذته ، وهو معنى تقصر دون ايضاحه العبارات ، وإن كفى في تعريفه لاهله أخفى الاشارات

ولعل الجامعة لاتعتب على الكاتب فيما كتب ؟ وفيما أجاب به من طلب ، فقد وفى حقا لها لو أغفله مع علمها بالقدرة عليه ، لحق لها أن توجه العتب اليه .

هـذا ماأردنا إيجاز القول فيه متعلقا بفلسفة المتكلمين ورأي الفيلسوف وسنتبعه بمقال آخر فيما حكمت به الجامعة من الكلام ، على الاضطهاد في النصرانية والاسلام ، ان شاء الله تعالى اه

﴿ تم المقال والحمد لله ﴾

يقول ابن رشد ، وأما مايقول ابن رشد فهو ماترى :

قال ابن رشد - وكل من تابعه على رأيه ولم يخالفوا في ذلك ارسطو : ان الممكن لاوجود له في ذاته وانما يستفيد الوجود من غيره ، وقد كانوا قالوا ان جميع مافي الكون ماعدا واجب الوجود المبرأ من المادة وغواشيها فهو ممكن، فكل مافي العالم فهو مستفيد الوجود من غيره ، فذلك الغير ان كان ممكنا فكيف يعطي الوجود وهو لا وجود له إلا من غيره؟ فاذا استمد منه مستمد فانما يستمد من فضل ذلك الوجود الذي جاءه من موجده إلى ان ينتهي إلى الوجود الاول فكل وجود سطع على الممكنات فهو فائض من وجود الواجب فلا وجود إلا من وجوده ، او كل وجود فهو شعاع لضياء وجوده، فاذا حرر المعنى من هذا على وجه أمكن عند العقل وجدته يرجع إلى ما قاله السيد الشريف من ائمة أهل السنة وغيره وهو

« ان الممكن ليس بشيء في ذاته ثم يكون شيئاً بالايجاد . والايجاد لو حققته أمر اعتباري انتزاعي له منشأ في الواقع وذلك المنشأ هو ذات الموجد وماهية الوجود الممكن التي صارت شيئا بتلك العلاقات الاعتبارية بينها وبين موجدها وهى مايسمونه تعلق القدرة بالمقدور ، وماهية الممكن ليست بوجود ولا الوجود أمر موجود قائم بها . فاذاً ليس من وجود في نفس الامر إلا وجود الواجب، فكان الوجود الحقيقي واحداً وسائر مايسمى وجوداً او موجودا

في قسم الرد الثاني ـ أي الكلام على أية الديانتين أكثر تساهلا للعلم ـ حججا حرية بالاعتبار ، ورأينا انه من المفيد أن يطلع المسيحي على رأي امام مسلم عصري في المسيحية فاخترنا نقله »

ثم طفقت هذه الجريدة تنقل هذا المقال فصلا فصلا . وقد رأينا في آخر عدد وصل الينا منها مقالة وجيزة لاديب مسيحي ذكر فيها انتقاد الجامعة ثم قال: «رد عليها الرجل الاسلامي العصري بل رجل الاسلام في هذا الزمان... رداً أثبت به ان الكنيسة المسيحية لم تتساهل قط للعلم والفلسفة فيستطاع أن يقال ان انتصار العلم في أوربا دليل على كون المسيحية أكثر من الاسلامية تساهلا، ووعد ببيان (لم يصلنا بعد) يرجع به انتصار العلم في أوربا الى أسبابه الحقيقية فهل أصاب صاحب الجامعة في جعل تساهل المسيحية سببا لانتصار العلم في أوربة؟ إذا كانت الكنيسة المسيحية لم تتساهل بل اضطهدت العلم اضطهاداً فالجواب « كلا لم يصب صاحب الجامعة » ثم ذكر الكاتب أن سبب القوة والعلم في أوربا يرجع الى طبيعة البلاد وما عرض عليها من ضيقها بسكانها الخ

وكتب الينا عالم مسيحي من سورية ـ تعتد الجامعة برأيه وتفضله على أقرانه بحق (هو الاستاذ جبر ضومط الشهير) ما نصه :

« ما أسمى ما كتب الامام في العددين الاخيرين من المنار ، يحق لنا أن نفتخر به المسلمون والنصارى معا ، لاتحصروا الفخر فيكم أيها المسلمون بل فاسمحوا لنا أن نشارككم كما يشارك البروتستانتي

تأثير هذا المقال وتقريظه

يقول جامع هذا الكتاب وناشره : كتب هذا الامام الكبير مقاله في أيام معدودات ، فجاء كما ترى آية من الآيات البينات ، ولقد كان لنشره من التأثير في عالم العلم والدين ، مالم نره لكلام أحد من الكاتبين ، طارت به اغتباطا قلوب المسلمين ، ولم يبخسه حقه فضلاء المسيحيين ، ورددت صداه المنعكس عن المنار ، بعض الجرائد في مصر وغيرها من الاقطار .

قالت جريدة الوطن القبطية الغراء بعد ماذكرت انتقاد الجامعة في عدد ٢١:١٣

« فهب المنار الاغر ينشر بالتوالي رداً مفحما طويل الاذيال لامام تغني كنيته عن التصريح باسمه . ضمنه تفنيد أقوال الجامعة بحجج دامغة قوية يأتي بالواحدة ثم يعقبها بالشرح والتطويل من التاريخ تارة وأقوال العلماء أخرى . ولا يزال المؤيد الاغر حتى الساعة يردد صدى هذه الفصول وإذاعة محتوياتها . والرد كما قلنا قوي الحجج ، متين العبارة ، لم يسبق فيه واضعه عالم قديم أو حديث » اه المراد منه

وجاء في العدد ٣٢٤ من جريدة المناظر المفيدة التي تطبع في سان باولو (البرازيل) وصاحبها من فضلاء السوريين المسيحيين بعد ذكر نقد الجامعة والرد عليه : « وقد طالعنا رده في مجلة المنار ورأينا

ونختم هذا التقريظ بأبيات أبيات من نظم أحمد افندي الكاشف الشاعر المشهور بالاجادة يقرظ بها المقال مخاطبا لكاتبه وهي:

سلاما حجةَ الاسلام فينا ... ورضوانا رجاءَ المسلمينا
عنيت بما كتبت فكان وحيا ... يؤيد وحي ملهمك المبينا
فلم تترك لمتهم مكانا ... يرى فيه المزاعم والظنونا
فما بطل يخوض الحرب فرداً ... فما يدعو بآخر مستعينا
جهاداً في سبيل الله يفدي ... بمهجته المواطن أن تهونا
بأبقى منك آثاراً وذكراً ... وقدراً في قلوب العالمينا
وكان يراعك المنصور سيفا ... وكان كتابك الدرع الحصينا
ملكت به معاقل عاليات ... نبت عنها سيوف الفاتحينا
وماضر الضلال الخلق حتى ... نفعتهم وأوضحت اليقينا
فرفقا بالمكابر قد كفاه ... مجادلة وأوشك ان يدينا
ودعه في تأمله عساه ... يجيئك باعتراف المهتدينا
فلو سلكت ملوك الشرق يوما ... سلوكك بيننا دنيا ودينا
تمادى الحق متبعا مصونا ... وقام الملك ممتداً أمينا
وعاش التاج مؤتلقا رهيبا ... ودام العرش معتزاً متينا
ومثلك لو تحكم مستبداً ... فقد ملأ الضمائر والعيونا

الكاثوليكي في انكلترا بالفخر بأحد علماء بريطانيا»

وكتب الينا غيره بمعنى ذلك وإن كان بعضهم انتقد بعض ما كتب في النصرانية وقال ان تلك الذنوب للكنيسة لا للدين المسيحي نفسه . ونحن المسلمين نقول بذلك ، نقول ان الصورة التي انقلبت اليها ديانة المسيح عليه السلام هي التي نشأ عنها ماتقدم ولو ظلت كما جاء بها المسيح لما كان شيء من ذلك .

وأما صاحب الجامعة فقد خيب حسن ظننا فيه ، ولم يرض باعتذارنا عنه، بل أصر على طعنه بالاسلام ، وأضاف اليه الطعن بنا وبالامام ، فرددنا عليه في المنار غير مرة ، ثم مرت ثلاثة أشهر بعد ذلك ، وهذا شهر رابع ولم تصدر الجامعة فنعلم هل هي مصرة على الخصام؟ أم ثابت الى الوفاق والوئام؟ والذي هو أولى بها في دار الاسلام؟

﴿ الجواب عن هذا الاستفهام ﴾

إن فرح أفندي أنطون صاحب الجامعة إنقطع عن إصدار مجلته وعن كل عمل زمنا طويلا ألف فيه كتابا في فلسفة ابن رشد للرد على الامام ظن أنه يكون مصدر ثروة له وشهرة يعد بها من أقران الامام، فكان سببا لزيادة سقوط قيمته العلمية والادبية ورددنا عليه في المنار رداً أظهر فيه جهله فيما كتب وخطاءه فيما نقل وكانت عاقبة ذلك أن بطلت مجلة الجامعة فلم يعد يقرؤها أحد واشتغل آخر عمره بتاليف القصص التمثيلية فكانت أولى به من الاشتغال بالفلسفة الالهية والمادية، وكل ميسر لما خلق له

تفسير القرآن الحكيم

الشهير بتفسير المنار

كان حكيم الاسلام وموقظ الشرق السيد جمال الدين الافغاني يقول ان القرآن لايزال بكراً لم يفسره أحد . يعنى أنهم فسروا الفاظه العربية لغة ونحوا وبلاغة واحكامه الفقهية ، ولكن لم يبينوا مافيه من الحكمة العقلية والادبية ، والسياسة الاسلامية ، والقواعد الاجتماعية ، والاصول العمرانية ، والمعارج الروحية ، وما في ذلك من أسباب السعادة الدنيوية والاخروية ، وقد اقتبس هذه العلوم والمعارف عنه مريده الاكبر ووارث حكمته الاشهر الاستاذ الامام الشيخ محمد عبده وشرع يبثها في تفسيره للقرآن في الجامع الأزهر ، فاقتبسها منه مريده السيد محمد رشيد رضا صاحب المنار الاسلامي ودون ماألقاه في الازهر منها في خمسة أجزاء من تفسير المنار ، وجرى على ذلك في سائر التفسير مع التطبيق على أحوال المسلمين السابقين والمعاصرين والتنبيه على مايجب من العبرة والعمل في ذلك وبيان ماصح من الروايات فيه

فقارىء هذا التفسير يجد فيه جميع أسباب سيادة المسلمين وسعادتهم السابقة وجميع أسباب ضعفهم وذهاب أكثر ممالكهم بعد ذلك وكل مايهمهم من علاج عللهم وامر مستقبلهم وما يجب عليهم من العمل لاعادة ملكهم وتجديد مجدهم

وقد تم من هذا التفسير عشرة أجزاء وثمن كل جزء ٢٥ قرشا ولتجار الكتب وطلبة العلم ٢٠ قرشا بخلاف أجرة البريد